

المِنبَّازَةُ النَّارُخِيَّةُ

فِي

مصر الوثنية والمسيحية

المطلب التاريخ الصحيح قسطنطين وترجم

تأليف

اسكندر صفي

Alexander Sefi,
London.

المطبعة الحديثة

شارع طلوع الشمس

شارع علوي رقم ٥ بالقاهرة

ELIAS' MODERN PRESS,
ELOUI STREET, CAIRO.

0173715



Biblioteca Alexandrina

اهداءات ٢٠٠١

المرحوم أ.د. زكي على

القاهرة

المِثَارَةُ النَّارِيخِيَّةُ فِي

مصر الوثنية والمسيحية

اطلب التاريخ الصحيح قنستريخ وتريخ

تأليف

اسكندر صيني

المطبعة المعاصرة

لشانتا الياناطلوس إلياس
طبعة ٥٦-٢٠ هـ

شارع علوى رقم ٥ بالهجرة

ELIAS' MODERN PRESS,
ELOUI STREET, CAIRO.

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

All rights reserved



يطلب هذا الكتاب
من ادارة « سفنكس Sphynx » بالقاهرة
في شارع المناخ
وثمنه عشرون قرشاً

مقدمة

الرائد لا يكذب اهله ، ولا يبرقش قوله ، واني استخرت الله وجمعت
هذا التاريخ من كتب الافرنج الفضلاء ، المطلعين عل اخبار الاغريق
والرومان القدماء ، وسميته

المنارة التاريخية في مصر الوثنية والمسيحية

يَدُّ أَنَّهُ السَّيَّارُ الْمَشْرِقُ فِي بَوَارِ الْمَشْرِقِ ، قَصَدَتْ فِيهِ فَكَاهَةٌ قَارِئِهِ
وَالْتَعْلِيمَ ، وَتَتَّبِعُهُ أَفْكَارُ الشَّبَانِ وَذَوِي الذُّوقِ السَّلِيمِ ، وَآخِلَهُ قَدْ آتَى رَائِقُ
الْحَدِيثِ بَعِيدَ الْغَوَرِ ، وَارْجُو أَنْ يَكُونَ قَاضِيًا عَلَى مِثْلِ ذَلِكَ الدَّورِ ، وَذَلِكَ
الْجَوْرِ ، حَتَّى يُرَى الْمَشْرِقُ زَاهِيًا رَاقِيًا ، وَلِأَسْبَابِ الْعِمْرَانِ وَاعِيًا دَاعِيًا ،
وَأَلَّا يَفُوتَهُ الْإِعْتِبَارُ ، مِنْ عِظَاتِ هَذِهِ الْحَوَادِثِ وَالْأَخْبَارِ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

بسم الله

الفصل الاول

سنة ٥١ الى ٣٠ ق م

في قلاو فطرا واخويها ويوليوس قيصر ومارق انطوني

(١) في سنة احدى وخمسين قبل المسيح تُوفي ملك مصر اليوناني بطليموس نيوس ديونيسيوس بالاسكندرية تاركاً وصيةً بالملك بعده لابنته البكر قلاو فطرا ولابنه بطليموس الاكبر على انهما يقتربان (١) ويحكمان سوياً . وكان قد ارسل صورة هذه الوصية لمجلس الامة في روما لتحفظ في سجلاته لوقت الحاجة وبها يقسم على الشعب الروماني بالاقسام الغليظة بالهتهم وبالمعاهدات الودية التي بينه وبينهم ألا يخالفوها ويعهد اليهم بكفالة ولده حتى يبلغ اشدّه فعند موته اقام المجلس وصياً على الملك القاصر بومبي صديق والده وفي السنة الثالثة من ملك قلاو فطرا واخيها ارسلت الاسكندرية ستين مركبا حربيّاً

(١) كالمادة عند ملوك مصر الاقدمين لا سيما بين ابناء الهيلاك من

لا ساعاف پومپي ضد خصمه يوليوس قيصر ، وبينما الحوادث تشغله
كان الخصي^١ پوتينوس مربّي الصبي هو الوصي^٢ فعلاً فاستأثر
برأيه واعلان الملك باسم الصبي^٣ وحده خلافاً للوصية

(٢) فانكرت قلاو فطرا فعله وهربت منه الى سورية وهناك جمعت لها
جيشاً وزحفت به الى حدود مصر تطلب حقها من الملك بالسيف .
واذ كانت جنود مصر واقفة في بلوزيوم^(١) لمقاومتها وصل الى
الاسكندرية پومپي مذعوراً من وجه قيصر المنتصر عليه في
فرساليا^(٢) يطمع باستقبال حسن ومروءة من مملكة ابن صديقه
غير مدرّك درجة مكر اليونان الذين لما رأوا ضعفه وخذلانه وقوة
خصمه اجمعوا رايهم على الغدر به^(٣) فارسلوا القائد اخلاّس والقائد
لوقيوس سبتيموس لاستقباله على المرفأ بظاهر الحفاوة والمودّة
ولما وصلوا به الى البر قتلوه . وعلى قول تيودوتوس اليوناني من
جزيرة خيوس استاذ الملك الصغير « لا خوف عليهم من عضّة
الميت » . وكان پومپي ذاك الشهم الخطير الذي تقلّد رئاسة
مجلس روما ثلاث مرار وله اليد البيضاء امام والد ملكهم القاصر !

(١) امنع حصون مصر قديماً على ميلين من ضفة النيل الشرقية
جهة سورية

(٢) هي تساليا الحديثة

(٣) وبعد قليل وصل ايضاً قيصر للاسكندرية ، وفيها باغى ما أراحه من ثقل جرم قتل حمه پومي . وكان مامعه من الجنود لايزيد عن ثلاثة الاف ومايتي راجل وثمانماية فارس لكنه بصفته كرئيس مجلس روما واستناداً على ما بقي من قواته في اسيا لم يحجم عن اصدار امره للعمل بوصية ديونيسيوس . فالملك اظهر الطاعة وبامر قيصر بعث رسولين الى اخلاّس بالأّ يتحرك بالجنود التي معه في پلوزيوم . لكنّ مربيّه پوتينوس اسرّ الغدر بقيصر ايضاً فارسل من قتل رسل الملك بالطريق بينما رسله تجد بالوصول الى اخلاّس لتطلبه مع رجاله للاسكندرية باسرع مايمكن

(٤) وكان قيصر قد ازعج پوتينوس بالحاحه عليه لوفاء دين جسيم كان له على الملك السالف . وتظلم پوتينوس للناس من طلبه واحقدهم عليه لابل انه امر بازالة اواني الذهب والفضة من مائدة قيصر وابدالها باواني الخزف والخشب واخبره بان تلك قد صبّت تقوداً لوفاء دينه ، وقدم لجنوده سؤالة الاطعمة وامتنّ بها عليهم كغير مندوبين لبلاده

(٥) اما قلاووطرا فكانت لم تزل ضاربة خيامها بالقرب من پلوزيوم تنتظر نتيجة اوامر قيصر . ثم انها احتالت لمواجهته واثقة بقوة جمالها لاستمالة لنحوها ، فركبت البحر خفية ودبّرت وقت وصولها للاسكندرية ليكون ليلاً ، وبوصولها اليها نزلت بركب

صغير مع صديق لها يدعى ابولودوروس الصيقلي . واذ رأت دخولها للقصر الملوكي علانية مستحيلاً ، طلبت الى رفيقها ان يلبسها ببساط ويلقيها على باب القصر كبضاعة برسم قيصر ففعل ونجحت حيلتها ووجدت نفسها واقفة امام قيصر ، لكنها بينما كانت قد جاءت سائلة اذا بها مالكة قلبه وصاحبة الامر على المملكة باسرها

(٦) وبهذا الاناء وصل اخلاص بجنوده للاسكندرية ، ولم يكن لدى قيصر سوى الجنود التي اتى بها وكان الشعب حاقداً عليه . فلما رأى ضعفه عن الخروج لاخلص عمده الى الامتناع بالقصر فتحصن وحبس عنده الملك واخاه الاصغر واختهما ارسينويه (اي القمر) وبوتينوس . وكان القصر بالنقطة المسماة بروخيوم على الشاطئ وله سور منيع لجهة المدينة والطرق منها اليه ضيقة لا تسمح للعدو ان يقتحمها بعدد كبير من الرجال ، ومع ذلك فان قيصر رأى استلزامه لعدد اوفر على البر ، فامر جنوده التي كانت باقية بالمراكب ان تحرق بعضها وتأتيه للبر . فلما اشتعلت المراكب التي امر بحرقها طار شرارها الى مخازن الرصيف فالتقدت وامتدت النار منها الى الموزيوم فاحرقته وابادت مكتبته الشهيرة مع السبع مائة الف كتاب التي كانت فيها وبها وبعلمائها ازدان ملك البطالسة وذريتهم حتى في اخر الزمان وتسلب الجهل على المملكة وبها كانت

الاسكندرية محط رجال رجال العلم بعد اثينا . ولولا ان قيصر يلاقى
فرجاً من اعدائه ولو بهلاك هذه المكتبة لكان ولا شك ترك
لنا بتاريخه عن حروبه تأييداً لا شكاً بها . فكاننا حال الجريض
دون القريض

(٧) ثم ان ارسينويه هربت من القصر الى اخلاس . فدقق قيصر
المراقبة حينئذ على من معه ، واكتشف على دسائس من پوتينوس
بها يطمع اخلاس بقلّة المؤنة بالقصر ويستمنض عزمه فقتله

(٨) ولبت اخلاس محاصراً قيصر فخر خندقاً بجانب القصر لينع
من فيه من الخروج ، وسلّح العبيد وسخر الاغنياء ، وبلصهم لكن
اذ ارسينويه عارضته ببعض تصرفاته ولم يصغ لكلامها ، عملت
على قتله واستبدت بالسلطة فاقامت خصيماً غانميدس قائداً على
العسكر وكانت هي بنفسها تخرج للجنود وتشجعهم على القتال
وسنها لا يتجاوز الثانية عشرة . واذ كان شرب الاسكندرية من
صهاريج يأتيها ماء النيل بأنابيب من التربة ، حوّل غانميدس ماء
البحر المالح لتلك التربة ، فلما اشعر رجال القصر بتغيير طعم الماء
صهر يحهم هاجوا قلعة لثلايموتوا عطشاً . لكن قيصر عرف السبب
فأمرهم بالحفر بالارض ، وبليلة واحدة وجد ماء عذبا يكاد يكفي
البلد كله خلافاً لزعم الجمهور لذلك الزمان بان ارض الاسكندرية
ليس تحتها ماء يُشرب

(٩) ثم ان غانيديس فكر فيما يصنع لهلاك المراكب الرومانية وهولا مواني له يحاربهم بها . فاستدعى كل المراكب التي كانت عنده لمراقبة الكمارك بالنيل واصلاح العتيق من مراكبه البحرية واخذ اخشاب البيوت لعمل المقاذيف وبعدة قصيرة جهز سبعة وعشرين مركباً حربياً ومراكب غيرها صغيرة كلها بكمال وقام مراكب قيصر ما خلا الزينة . وكان ماسك الدفة بمراكب الاسكندرية يقف تحت خيمة بشكل الخوذة (التي اسمها بالانكليزي هِلْمِت) فصار فيما بعد هِلْم اسماً للدفة بلغة الانكليز . اما قيصر فلم يكن باقي عنده من مراكبه الحربية سوى خمسة عشر مركباً مع بعض مراكب صغيرة ، لكنه اذ كان واثقاً بحكمة وشجاعة نوتيته الرودوسيين امرهم بالخروج الى العدو المحيط بهم وراء جزيرة المنارة ، ورغماً عن ان ضيق المخرج كان لا يسمح لهم بالخروج باكثر من اربعة مراكب بالدفة يمكن للعدو كلما برزت ان يحوط بها ويحطمها ، خرجوا اليه وكانوا كلما تصدّى لهم مركب من مراكبه يديرون له رأس مركبهم المحدث الى انهم نزل مراكبهم الاربعة الاولى تمكنوا من اخراج مراكبهم كلها من المرفأ واستعرو القتال بين الفريقين حتى احمر وجه البحر من الدماء . وكانت ترى سطوح الاسكندرية والجزيرة غاصّة بالمتفرجين وصراخهم ميلاً الجو تحريضاً لرجالهم على القتال . اما نوتية قيصر فكان لا حاجة

لهم بالتحريض الامن عند أنفسهم ، فاسروا مركبين واغرقوا
ثلاثة من مراكب العدو وهرب منهم الباقون وتبددوا

(١٠) فلتلاني مثل هذا الخطر ثانية ، عزم قيصر على الاستيلاء على
جزيرة المنارة فعبأ مراكبه وخرج اليها فأخذها والقلعة التي
فيها والسد الذي يربطها بالبر بينما كان العدو ماسكاً بالطرف
الآخر من السد قلعة اكبر فقصد ان يخرجها منها ايضاً ، لكنه
لما جرب ذلك أخفق وارتدت جنوده هاربة لمراكبها والعدو
يضعفها ، ومن شدة الازدحام بالمراكب غطس مراكب قيصر
الخاص به ولولا انه يرمي بنفسه للماء ويسبح لمركب أبعد لكان
هلك من جملة الثمانمائة مقاتل الذين فقدهم ذاك اليوم . وفقد جبته
الرسمية فأخذها المصريون وعلقوها وسط المدينة علامة لانتصارهم

(١١) ثم حصلت مهادنة بينهم لأن المصريين كانوا قد بدأوا يشكون
من جور ارسينويه وخصيها ويطلبون ملكهم . وكان قيصر
يحسن الظن بالصبي فعزم على اطلاقه وردّه اليهم ، فبطليموس
الاكبر اظهر عدم رضائه من مفارقة صديقه قيصر وتأسف وبكى
لكنه اذ بلغ معسكره مسح دموعه وأعاد الكرة على قيصر

(١٢) وكان قيصر ينتظر أن تأتيه مراكب سورية بذخيرة فوضع
بطليموس مراكبه على مصب النيل جنوبي الاسكندرية وسدّ
عليها الطريق

(١٣) انما متريد اتس البرغامي كان زاحفًا برًا بجنود سورية لاسعاف قيصر، وبوصوله الى پاوزيوم فتحها ثم مشى الى مَنَف (١) عازمًا أن يقطع النيل بالقرب من هليوبوليس فقام اليهود هناك يعارضونه لكنه لما اطعمهم على الرسائل التي معه لهم من اخوانهم في اورشليم أنسوا به . ثم لحق به انطيطاير بثلاثة آلاف مقاتل من اليهود ، وقيصر ومن معه من الجنود أثوه مقلعين براكبهم فحشد لهم بطليموس قواته وكان القتال بينهم أولاً سجالاً الى ان كسروه فالتجأت رجاله لراكبها وازدحم مركبه الخاص فغطس به وبمن معه وهلكوا بأجمعهم

(١٤) فعاد قيصر حينئذ بجنوده للاسكندرية ، ولما وصلها خرج اهلهما لاستقباله وامامهم الاصنام يطلبون الأمان ، فأمنهم ودخل المدينة وأول اوامره كان أن يُعمل بوصية ديونيسيوس ولما كان الابن الاكبر قد مات أمر ان يكون أخوه بطليموس الاصغر عوضاً عنه بالملك مع قلاوفطرا ، وكانت قلاوفطرا قد ولدت لقيصر ابناً سماه قيصرون (٢) ورغماً عن ولعه بها لم يرَ بداً من رجوعه لروما

(١) — عاصمة مصر القديمة على اثني عشر ميلاً جنوبي القاهرة وليس لها اثر الان . اما هليوبوليس مدينة الشمس المصرية فهي «عون» التوراة
(٢) — هكذا كان قانون الملكة لكي لا يسقط حق الملكة من ملكها بادخال غريب عنها فيه فكانت تأخذه صاحباً

فتركها تحكم باسمها واسم أخيها الذي صار زوجها الشرعى ككتابين عنه ، وأبجر لروما مع الفيلق السادس الروماني آخذاً معه الأميرة ارسينويه اسيرةً. فلما وصل اليها علم بأن مجلس الامة فيها قد سمّاه اوتوقراطاً من ستة اشهر وكان مارق انطوني رئيس اصطبله النائب عنه في تلك المدة

- (١٥) ودخل روما قائداً الاميرة ارسينويه موثوقةً بالاغلال وراء مركبته. وكان بموكبه مركبة فوقها صنم آله النيل واخرى تحمل تمثال منارة الاسكندرية ووراءها زرافة لم تسكن الرومان عرفت شكلها من قبل. ثم بعد قليل وفدت عليه زائرة الملكة قلاو فطرا مع زوجها الشرعى وعمره اثنتا عشرة سنة وكانا نزيلي داره مدة من الزمان ولما كانت السنة الخامسة من دخوله الاسكندرية واذا قلاو فطرا نزيلة داره انتقض عليه الرومان لزعمهم أنه قد استبدّ فيهم ، وقتلوه . فتحيرت قلاو فطرا في امرها وظنت أنها تستميل الرومان اذا عرضت على مجلس الامة اقامة ولدها قيصرين شريكاً لها بالملك . فالتجأت الى قيصر ليعضدها لكنه كان يبغضها لتجبرها فرفض طلبها وهديّة كانت قد ارسلتها اليه ، فلما انكرها وجلت وهربت راجعةً لمصر

- (١٧) فمن هذا الوقت ضيّعت مصر استقلالها وأمست قلاو فطرا في خطر من الرومان ان لم يكن لها زبون منهم فحوّلت انظارها

اولاً (وقيل اكثر من ذلك) نحو سكستوس بومبيوس الذي كان على رأس اسطول روماني عظيم وييده صقليا ويطمع برئاسة روما ، لكن اوقتاويانوس بعد قليل انتصر عليه ولاشى قواته فلم يفدها شيئاً

(١٨) وكان قيصر قد ترك في مصر جيشاً رومانياً وافراً لحراسة المملكة

ظاهراً ، لكن حقيقة لحفظ السلطة الرومانية . فكان هذا الجيش

لا شغل ولا عمل له الا البطر والفساد وكان شرّ قدوة للجمهور

(١٩) أما فلاو فطرا فريثاً كان اخوها ولدأ قاصراً لم تبال ان يكون

شريكاً لها بالملك ، لكنه اذ بلغ اشدّه قتلتته واخذت ابنها

قيصرون شريكاً لها

(٢٠) وبوجه الاجمال فان هذا الزمان كان زمان فسق وفجور واسراف

وفتن في مصر ، فلا نجد فيه شيئاً من نتائج العقل والعلم ، الا ان

الرياضيات كان اهمالها اقل تأثيراً من اهمال الشعر والفلسفة . فان

سوزيجينوس كان اول علماء الفلك في ذلك الزمان في مصر

وبمساعده أصلح يوليوس قيصر تقويم السنة المنسوب اليه وهو

الذي بعد تحديده ايام السنة من ثلثمائة وخمسة وستين يوماً وربع

يوم بدّل رأس السنة ثلاث مرار لارتياحه بيوم الاعتدال ، وذلك

لأن المراقبة اللازمة كانت في ايامه محصورة بيومين من السنة

اذ تمرّ الشمس بخط الاستواء

(٢١) ومن علماء الحساب والهندسة في ذلك الزمان كان الرياضي فوتينوس وديديموس بالفقه ، وديسقوريدس بالطب ، ولهذا كتاب نفيس بخصائص الحشائش والاعشاب والمعادن للطب ، وبالسموم وعلاجاتها تداولته الناس اجيالاً عديدة الى ان اضعفت الاكتشافات الحديثة رأيه . واشتهر ايضاً بهذا الزمان الجراحى سيرايبون . قيل عن تجربة لا عن علم

(٢٢) وبهذا الزمان كان بناء المعبد الصغير في هرموتس بالقرب من ثيبه للآلهة مندو او الشمس على اسم فلاو فطرا وابنها قيصرن ، وبالقرب منه حوض ماء للزوم الفرائض الدينية . وهذا المعبد يختلف عن المعابد القديمة بضعفه عنها . وهو الوحيد في ثيبه للاله مندو . مع انها كانت تعرف هذا الاله من عهد رمسيس الثانى لكننه اصلاً من الهة الاريايف وانما آتى زمان عبدته فيه ثيبه بدلاً من « عمون را » . ثم رجعت لعبادة هذا الى ان سيد بذلك الزمان المعبد الصغير لمندو الذي سنراه بالعهد التالى قد صار من آلهة النوبة

(٢٣) اما موت قيصر فلم يكسب الرومان شيئاً من الحرية المندوبة والراحة المرغوبة ، لا بل انه زاد بالنزاع فيما بينهم وبيلايا الفتن الداخلية . ثم تغلب حزب قيصر على غيره من الاحزاب بعزم

اوقتاويانوس ابنه الشرعي وصديقه مارق انطوني . وعادت الساطة
 لهذه الفتنة ونيرها أحكم ربطاً من نير قيصر وأعظم قرأ
 (٢٤) لا يظهر لنا جلياً كيف كانت أميال قلاو فطرا لدى النزاع بين
 مارق انطوني وحزب قاتلي قيصر، وربما انها كانت تنتظر لثري
 من الأقوى لتميل اليه فان اليانوس كان قد أتاها من قبل
 دولوبلا يسألها أن تبعث ما يمكنها من الجنود لمساعدة انطوني
 في سورية، فأعطته أربع فرق من جنودها الرومانية . لكنه
 بوضوله لسورية انحاز لقاسيوس خصم انطوني . فهل كان هذا منه
 غدرًا بقلاو فطرا أم بتواطئه منها، لا نعلم؛ انما المعروف هو ان
 قاسيوس كان يشكر لاليانوس اكثر من شكره لها . ثم لما سيرايبون
 والي قبرس حشد ايضاً لما كان يظنه الحزب الأقوى وبعث
 مرافقه لخدمة قاسيوس كانت قلاو فطرا تجهز عمارة كبيرة . لكن
 بما ان قبل خروج هذه العمارة كانت الحرب قد انجالت عن
 انتصار انطوني وقتل بروتوس وقاسيوس قالت أنها انما كانت
 تجهزها لمساعدة اوقتاويانوس وانطوني فأرسل انطوني يطلبها
 لمواجهة في طرسوس لتبرهن له ذلك

(٢٥) فالرسول اليها ديليوس لاقى منها اكراماً وحفاوة فلاتفها وأزال
 روعها مشيراً عليها أن تتكل على جمالها فجهزت مرافقها وشحنتها
 بالهدايا النفيسة واقلعت لطرسوس واثقة بالغلبة على قاب قاضيتها كما

غلبت على قلب قيصر من قبل وهي أحدث سنًا واقل حنكة
فدخلت مراكبها نهر قدس الذي نسميه العاصي برونق باهر جدًّا
فكان مركبها محليًّا مؤخره بالذهب وشراعه من القماش الأحمر
ومقاذيفه من الفضة تمحرك على نغمات الأوتار وهي لابسة ثوبًا
شفافًا ومتكئة على وسادة من الحرير يظللها سرادق من الديباج
وحولها غلمان كالآقاريرو وحون لها بالمراوح وآماتها الفتيات لابسات
ما خفَّ وصفٌ يسكن حبال الحرير المتصلة بالشراع والدفة واذ
دنت من البر حل النسيم روائح مجامرها العطرة لاهالي طرسوس
الذين كان الشاطيء غاصًّا بهم وانطوني جالسًا بينهم على اريكة
لاستقبالها .

يا سالكا بين الأسنة والظبي . اني اشم عليك رائحة الدم !
(٢٦) وطرسوس على نهر العاصي طرف احراش سفح جبل طوروس
الفاصل بينها وبين قبائل افريجيا والفينيقيين كان نصفها من اليونان
والنصف الآخر من السوريين وكان لها شهرة عظيمة ببناء المراكب
والتجارة نظراً لحسن موقعها وخشب احراشها فكان تجارها اصحاب
غنى واسع واداب ولهم فيها القصور الشائقة والمدارس للفنون والعلوم
اليونانية وكان يخرج منها علماء مفلقون عرفت روما منهم اكثر مما
عرفت من علماء الاسكندرية واثينا لأن المراكب كانت كثيرة
(٢)

عندهم تحملهم أينما شاءوا فأتينو دوروس قوريليون كان منهم أتى روما وصار استاذاً لقاتو وأثينودوروس بن صندون مثله صار استاذاً لقيصر ونستور صار استاذاً لمرقلوس ومنهم كان ديميتريوس اول عالم نزل شطوط بريطانيا وبعد جيل من زمان هؤلاء الرجال خرج من مدارسها ابولونيوس الوثني المدعي بالمعجزات واخيراً بولس الرسول فالفرق بين مباديء هؤلاء الرجال وما شاهدته طرسوس من اطوار قلاو فطرا كان عظيماً جداً

(٢٧) ولما نزلت قلاو فطرا للبرّ وسلّمت على انطوني دعتة واركان حربه لوليمة كانت قصاعها من الذهب المحلّي بالحجارة الكريمة والسرادق واثننا عشرة وسادة فيه كانت كلها من الديباج الفاخر واذا اظهر انتوني اعجابه من مثل هذا الغنى اهدته الاواني كلها ثم دعتة باليوم التالي وارته من الغنى والزينة اعظم مما رآه بالأمس وبعد الغذاء اهدته ايضاً ما كان على المائدة من اواني الذهب واهدت اصحابه الوسادات التي جلسوا عليها

(٢٨) وظلّت تولمه اياماً متوالية على هذا النمط حتى انه لامها على هذا الاسراف فقالت له انتظر غداً لماً اولك وليمة قيمتها عشرة الاف ستسترياي ستون الف ليرة انكليزية من عملتنا الدارجة الآن فأجابه بأنه يستحيل عليها انفاق مبلغ كهذا على وليمة فلما كان الغد اولته كالعادة أو أحسن الا انه لم يرَ ما يعتبره خارقاً فقال لها أرينا

نقوميك لهذه الولية لنعرف الحقيقة عن كلفتها التي زعمت بالأمس
انك ستنفقنيها وكان باذنيها لؤلؤتان ثمان عشرة الف سيستريا
فدعت بقدر من الخل والقت فيه احداها وشربتها وكادت تفعل
كذلك بالتانية لولا ان القائد بلانسكوس يمسك بيدها ويصدها
ويحكم بأنها صدقتهم وبعيت تلك الدرّة الى ان قُطعت نصفين في
مستقبل الايام صيغا قرطين لصنم وينوس بالبانطيون في روما
ولشهرتهما بما كان من قصتهما صارا يثمان بقيمة الدرّتين
الصحيحتين

(٢٩) فكذا لطف وذكا، وكذا جمال وصبا أخذن على عقل الشاب
وقلبه فراح صريع الغرام. وبينما كان يقصد محبتها وجد نفسه
محكوماً عليه ومقيداً بسلاسل لا انفصام لها للدرجة أنه امتثالاً
لارادتها سمح بمخنق شقيقتها أرسينويه في معبد ديانا بافسس بعد
عفوه عنها ظناً منه بأنه يراعي بذلك احساسات قلاو فطرا. ومن
بعض كمالات هذه الملكة العقلية كان اتقانها لاكثر لغات
الشرق والغرب

(٣٠) تلك كانت حالة انطوني بينما كانت زوجته فولويه تهتم بتقوية
حزبه في روما ضد مطامع أوقتاويانوس وبينما خصمه الآخر
لابيانوس يهدده بجنود بحر الخزر حتى انه رافق قلاو فطرا
للاسكندرية وسكن معها غير فائق من سكرته بهواها وهي

تؤانسه وتمسح قدميه بالعطّر (كالذي أهرق على رأس السيد المسيح فيما بعد) وكان الرطل المصري منه يباع بأربعمائة دينار في قماقم من الحبسين من عمل بلد الأَبسترون في الجهة الشرقية من النيل (١) ومن اسم هذا البلد أخذ الافرنج اسم الأَبستَر وكان يُتاجر بهذا العطّر من مصر الى دجلة

(٣١) وفي السنتين العاشرة والحادية عشرة من ملك قلاو فطرا لم يتم وفاء النيل فأقحطت مِصر وحصلت مجاعة فيها ومن أثر ذلك ما وجد مكتوباً من تشكرات كهنة ثيبة (٢) لقاليماخوس جابي الخراج لرفقه بالناس في تلك الأيام وبسبب نقص الوارد من الحبوب المعينة لفقراء الاسكندرية حُرم اليهود منها فكان ذلك خرقاً لمساواتهم الشرعية باليونان وابتداءً عداوة طويلة بين الفريقين لاسيما وان اليونان كانوا ينظرون الى كل شرقي كبربري وورقيق واليهود لا يرون كفواً لهم بالدنيا سوى العرب

(٣٢) ولما كان كل استناد قلاو فطرا على جيش الرومان كان كل اهتمامها بمرضاة انطوني فولدت له ابناً سمته بطليموس وتوأمين سمتهما اسكندر هاليوس أي الشمس وقلاو فطرا سيلينه أي القمر وكانت نديمته بالشرب وشريكته بالقمار ورفيقتة بالقنص والصيد

(١) على خط طرف جبل سيناء

(٢) عاصمة الصعيد فندما على جنبي النيل تجاه راس المرج الكبير وهي الآن الاقصر

واستعراض الجيش حتى اذا قام بالليل يتجسس كانت تصحبه بزي
غلام كي لا تترك له وقتاً الا ويراهما بجانبه
وكنتم اذا ارسلت طرفك رائداً

لقلبك يوماً أسلمتك المحاجرُ

(٣٣) ثم أتاه ابنه الاكبر من فولويه زائراً وأقام معه مدةً بهناء ورغد
عيش واذ هم لاهون آمنون وأنطوني يرى الدنيا طوع يديه
وفدت عليه الكتب من روما تخبره بأن أوقتاويانوس قد نفى
زوجته فولويه وأخاه من روما واستبدت بالحكم فهول راجعاً اليها
لكنه لم يصل الا بعد أن كانت زوجته قد توفيت فتزوج أوقتاويا
أخت أوقتاويانوس أرملة مرقاؤس لغاية سياسية ظنها تفيد حزبه
(٣٤) وفي تلك السنة أي ٣٩ ق م أتى هيروود بن أنطيطاطر مصر
قاصداً روما ليطلب اليهودية مملكة له فاستقبلته قلاوفطرا
بالاكرام وتلطفت اليه ليبقى عندها أميراً على جنودها لكنه اذ
كان يطمع باستقلاله لم يفره عرضها عليه الأمانة فشكرها
واعتذر وأقنع الى روما وهناك ساعده أنطوني على غايته وبواسطته
منحته السناتو كرسي اليهودية فعاد لسورية ليجمع عسكراً للاستيلاء
على فلسطين ولما نشبت الحرب بين أنطوني وأوقتاويانوس كان
هيروود قد دخل اورشليم بمساعدة سوستوس وكيل انطوني

(٣٥) وبالسنة التالية أتى أنطوني بنفسه لسورية فبعث يطلب قلاو فطرا اليه ويوصلها أهداها ما ربما كان أثمن هدية من عاشق لمعشوقته فانه أقطعها فينيقيا والبقاع وقبرس وقسماً من سيليقياً جانب جبل طوروس وقسماً من اليهودية ومن النبطية فلم يزدها ذلك الا طمعاً فانها طلبت منه أيضاً رأس هيرود ورأس مالك ملك النبط لأن الأول كان قد أشار على أنطوني بقطع علاقاته معها التي كانت سبب الاختلاف بينه وبين أوقتاويانوس ولأن الثاني كان حاقداً عليها . فلم يطاوعها انطوني على طلبها هذا لكنه زاد لها أرض البلسم المحيطة باليهودية ومائتين الف تالنت أي قيمة ثلاثين الف ليرة من عملتنا الدارجة الآن من خراج اليهودية . ولما رأت نفسها على رأس مملكة عظيمة كهذه أخذت تؤرخ ملكها ثانية من تلك السنة وبعد ان رافقت أنطوني للفرات بزحفه ضد أرمينيا عادت لمصر عن طريق دمشق واليهودية حيث استقبلها هيرود بلياقة اكراماً لأنطوني وضمن لها الخراج الراجع لها من اليهودية ثم مشى بعض فراسخ بوداعها

(٣٦) ومع كل طيش هذه الملكة فانها كانت من ذاك النسل محب العلم وجامع مكتبة الموزيوم التي احترقت بمحاصر قيصر فبطلها الآن أهداها انطوني مائتين الف كتاب من مكتبة برغاموس^(١)

(١) برغامة من اسيا الصغرى ومن اسمها اشتق الافرنج اسم الرق بلغاتهم « بارشمن » نظرا لشهرة الرق المصنوع فيها بذلك الزمان

وضعها في معبد سرايس وبها عادت الاسكندرية اول مدينة
بالدنيا بالعلوم حتى باخر الزمان وانحطاط مصر لدرجة ولاية
رومانية لابل وخمسين سنة بعد ذلك حينما الفيلسوف اليهودى فيلو
اتى الاسكندرية وسأل ابن هم بطالستها فكان لسان حالهم
يحييه ها هنا في مكتبة السيرايوم

(٣٧) ولترجع الآن لأنطوني فانه بعد انتصاره على الأرمن عاد
للاسكندرية قائداً ملكهم أرطاو زدرس أسيراً وراء مركبته ثم
دعى الناس للجمنازيوم وجلس هناك مع فلاوفا على كرسيين
من الذهب وأعلن للجمهور اتخاذا ابنها قيصرىون شريكاً لها
بالمالك وأعطى أولادها الآخرين لقب ملوك أبناء ملوك وأقطع
ابنها اسكندر أرمينيا وميديا والجرمان متى تم فتحها وأقطع
بطليموس ابنها الآخر فينيقيا وسورية وسيليقيا جانب جبل
طوروس وكانت فلاوفا لابسـة ثوباً كالإلهة ايزيس بصفة
ايزيس الجديدة وألبست ابنها اسكندر جبة وعمامة مجوهرة على
شكل المديانيين وألبست بطليموس جبة طويلة وقلشيتاً وعراقية
عليها اكليل مجوهر أشبه بتاج خلفاء الاسكندر. وكان أنطوني
لابساً تاجاً ومقلداً سيفاً شرقياً وأهدى بذلك المحفل لفلاوفا
كافة التحف التي أصابها من بارثيا أي بلاد الخزرخ وأسيره
طفران بن ملكهم

(٣٨) لكنه اذ كان نفوذه بهذا الاثناء قد سقط في روما مالبث قليلا حتى صار يخشى من تغيير فلاوفطرا عليه ويخاف أن تغدر به ورغماً عن ولعه بها صار لا يأكل ولا يشرب عندها ما لم تقاسمه المأكول والمشروب . فاستاءت من ذلك وهي لم تنزل محاضرة له ولتبرهن له صفاء نيتها لنحوه . دعتة يوماً للغذاء بعد ان اخذت زهوراً كانت تكمل رأسه بها على السباط وغمستها بالسم الناقع . ولما جالسا على المائدة رفعت من رأسها زهوراً ورمتها بقدرها كأنها تتأنق برويتها بالقدح وشربت فاقتدى بها انطوني لكنه اذ مال بالقدح الى فيه خطفته منه وأخبرته بأنه مسموم ولو أرادت موته لتركته يشرب ثم أقنعتة بالبرهان بوجود ذاك السم فسكنت روعه وعاد الى ثقته باخلاصها

(٣٩) . واول النقود المضروبة بعهد فلاوفطرا كانت ترى عليها صورتها من جهة وصورة نسر ام قرن من الجهة الاخرى واسم الملكة فلاوفطرا . ثم اذ ولدت لأنطوني أولاده ضربت النقود بصورة انطوني فاتح أرمينيا من جهة وصورة الملكة فلاوفطرا أم الملوك أبناء الملوك من الجهة الاخرى ومنها بصورة انطوني امبراطوراً من جهة والاإلهة الفتية بصورة فلاوفطرا من الجهة الاخرى . وربما أن فلاوفطرا كانت آخر ملوك اليونان الموصوفين بألهة على عادة القوم قديماً من وجه التحجب والاكرام وليس من وجه الحقيقة

أو ربما أصلاً بمعنى ان القائم بالامر أميراً كان أو سيداً أو رئيساً هو كاله لمن تحت سلطته بالنيابة عن الآلهة الغير منظورة وهذا فيه نظر لمن تبصر

(٤٠) انما يموت يوليوس قيصر و بعد قليل منه يموت بروتوس وقاسيوس مزاحي أنطوني على رئاسة روما . وجد هذا نفسه الزعيم الاول بين الرومان لكن كثيرين منهم كانوا يكرهون سلوكه في مصر وكان أوقتاويانوس قد ابتداء أن يجعل لنفسه حزبا قويا ضده فأول الامر لم يؤثر ذلك على مركز أنطوني في روما فضربت نقودها تلك السنة بصورته من جهة وصورة النسر المصري من الجهة الاخرى وسمى المجلس نائباً له صديقه سوزيوس ريثما يحضر لاستلام زمام رياسته فضربت مصر نقودها النحاسية حينئذ مكتوباً عليها من جهة أنطوني قنصل لثالث مرة ومن الاخرى الملكة الالهة الفتية انما قبل سفره منها كان قد تغير رأى المجلس فيه وعُدَّ عدواً لروما لكن اذ لم يرد أوقتاويانوس أن يشهر الحرب ضده أشهره ضد قلاو فطرا أوكما ادعى ضد حاشيتها مفسدي أخلاق أنطوني وهم عبدها مرديون وأمتها ايريس وامرأة من خواصها تدعى خرميون

(٤١) وفي بداية السنة التي كانت ستنتهي بموقعة اقييوم (١) بين أنطوني

(١) راس خليج اربا من بلاد الاغريق الغربية المسماة بريا حيث خبر الدين سنة ١٥٣٨ م فاز على عمارات اسبانيا والبندقية والاباوية

واوقتاويانوس كان هذا قد تسلط على ايطاليا والغال واسبانيا
 وقرطاجنه يقود ثمانين الفا من المشاة واثنى عشر الفا من الفرسان وله
 مائتان وخمسون مركبا حربيًا بينما انطوني كان الامر في مصر
 والسودان والقيروان ولديه مائة الف من عساكر المشاة واثنى عشر
 الفا من الفرسان وخمسمائة مركب وكانت كل ملوك المشرق من
 انصاره فكانت قلاو فطرا موقنة بالنصر تحلف برأسها انها ستري عن
 قريب جالسة على سرير روما وكان ذلك جائزًا لولا ان انطوني
 يأخذها معه لميدان الحرب ويقضي على نفسه وعليها بالفشل والهلاك
 لأنه اذ كان يقاتل اوكتاويانوس بعمارته على شطوط بحر الروم
 بالقرب من اقسقيوم جاء وقت خاف فيه عليها فهرب بها طائشًا عوضًا
 عن أن ينضم الى جنوده البرية التي كانت أوفر من جنود اوكتاويانوس
 ويقودها الى النصر

(٤٢) ولما وصل بها الى ليبيا أنزلها هناك وأرسلها برًا للاسكندرية
 وربما أنه كان ينوي الرجوع لموقع الحرب ويفعل ما أشرنا اليه لكنه
 لم يفعل بل أقلع هو أيضًا للاسكندرية هاجرًا جنوده التي انضمت
 حينئذ الى خصمه وهو اذ وصل للمرفأ اعتزل بنفسه كثيرًا مدة
 قصيرة بصومعة هناك ثم خرج منها ودخل المدينة ورجع الى ما كان
 عليه من اللهو والطيش مع محبوبته مهملاً أخذأي احتياط من الخطر
 الذي كان يهدده برًا وبحرًا

(٤٣) هذا مع ان سكان مصر كانوا بذلك الزمان يبلغون زهاء ثلاثة آلاف الف نسمة فكان يمكن أن يخرج منهم ثلثاثة الف مقاتل وكانت ثروة الاسكندرية لم تنزل كافية لاعتالهم لكنهم كانوا قد ألفوا الذل كالعير فلا يبالون من يركبهم من الحكام فلم يحركوا ساكناً لنصرتهم ولما وصل أوقتاويانوس الى بلوزيوم لم يجد سوي حامية ضعيفة كان قائدها سلوقوس الذي سلم له بدون مدافعة ولهج الناس بأنه فعل ذلك بأمر من قلاو فطرا لكنها أنكرته وتبهرى نفسها أمام انطوني سلمت له أولاد سلوقوس وزوجته لينتقم منهم ان شاء

(٤٤) ثم وصل اوقتاويانوس لضواحي الاسكندرية ونصب خيامه بعيداً من بابها الشرقي فخرج اليه انطوني برجاله وأزاحه عن مكانه ذاك اليوم الا أنه لما أراد الخروج في اليوم التالي ودعى جنوده فلم تجبه الا شرذمة حفظت ذمته فكرر بها مشعراً بخيانة قواده فلم يطق الوقوف امام عدوه فانهزم هارباً لداخل السور

(٤٥) فاليهود فرحوا من خذلان قلاو فطرا وأظهروا ارتياحهم من فشل حاميتهما وصارت هي تلعنهم وتستهي ذبحهم ولو بيدها وكان انطوني يرى تواتر رسل اوقتاويانوس اليها فاشتبه بصدقها وهي خافت من غضبه فهربت الحصن كانت قد بنته بالقرب من معبد ايزيس آخذة معها كنوزها من ذهب وفضة وعاج وابنوس وكية من القنب كأنها تقصد ان تضرم النار بالمكان وتموت فيه حريقاً بثروتها ثم ارسلت

تخبر انطوني بأنها قد ماتت فلما اتاه الخبر ظن أنها قد سممت نفسها
فبكى لفقدائها ولم يرضَ ان يعيش بعدها فاستل سيفه وشكه بصدره
حتى اشرف على الموت وطار الخبر الى قلاو فطرا بما كان منه
فانتحبت وبكت وطلبت احضاره اليها فحمله خدمه الى الحصن
ولسكون قلاو فطرا كانت قد سدّت بابه خوفاً من ان يغدر بها
وتقع بيد العدو ارخت له سلة من كوة الحصن تنشله بها فكانت
تسحبه بمساعدة امرأتين معها بمنظر من الجمهور والدموع تكاد ان
تعمي بصرها وهو ملقى مضمخ بدمه رافعاً يديه نحوها فرحاً بسلامتها
لكنه بعد وصوله اليها مات

(٤٦) وبهذا الاثناء دخل اوقتايانوس المدينة راجلاً وبرفقته اريوس
فاعطى السكان الامان وحرّم على عساكره السلب اكراماً
لطلب رفيقه ثم سأل عن اولاد قلاو فطرا من انطوني وتلطف
بهم اما ولدها قيصر فكان هارباً نحو السودان مع مربيّه
رودون ومع انه يكون ابن خاله قيصر ذاك الذي تبناه وسماه
باسمه اي يوليوس قيصر اوقتايانوس لم يشفق على حداثة سنه
وضعه بل ارسل من لحق به وقتله بالطريق . قيل بتواطؤ من
مربيّه اما المنزلفون الى هذا الظالم فمنهم من يقول بان اريوس
كان المشير عليه بقتل الصبي ومنهم من يدّعي بانه كان ابن

قلاوفطرا من اخيها لامن قيصر فينتحلون عذراً لصاحبهم الذي
اعطوه فيما بعد لقب اغسطوس

(٤٧) وامر اوقتاويانوس بالاحتياط بقلاوفطرا كي لا تقتل نفسها وهو
يريد ان تعيش لبزيم بها موكبه عند اياه الى روما فراح يزورها
ويعزيها بفقد انطوني واذن لها بدفنه ووعداها بحفظ كرامتها
وتهددها بقتل اولادها ان اضرّت بنفسها لسكرها لم تطق الحياة
طويلا فيقال بانها اخذت سما ام ماتت من لسعة زنبور ام حية
أُتي لها باحديهما في سلة غيب وعمرها اذ ذاك تسع وثلاثون
سنة ودفنت بجانب انطوني باحتفال ملوكي

(٤٨) ومعنى اسم قلاوفطرا « عزّ والدها » فكان اسما لطيفاً شريفاً
شائعاً بين اليونان والمقدونيين زهاء اربعمائة سنة حتى دنسته هذه
الملكة بسيرتها الرديّة فقلما سموا به بناتهم بعدها

(٤٩) ورأت روما فرجا بموت قلاوفطرا وخلاصاً من خطر وقوع
اوقتاويانوس بشراكها والتلوث بعار فجورها

(٥٠) سوى اننا قد كنا للان ننظر الى الرومان عن بعد ولا نرى منهم
الا التهامه والمروءة فكان بالصدر الاول كيفيهم الشكر من
ايفانوس وفيلوماطر وعرجيس الثاني لمساعدة ابدوها اما الان
فصرنا نرى البحر لا يرويههم والاهواء الذاتية والمطامع تقودهم
رويداً رويداً الى الاستئثار بالسلطة والفتوحات لاتزيدهم الا

طمعاً فانهم ملكوا اولامقدونيا من باب المدافعة ثم القيروان بحيلة
ثم قبرس بلا سبب وصرنا نرى رجال السناتواشد رغبة في الرشوة
من الامة بالفتوحات والولاة كالذئاب الخاطفة حتى انهم لما تفاقم
الفساد بينهم لم يروا دواءً له الاً جعل اوقتاويانوس اوطوقراطاً
اى حاكماً مطلقاً يعمل برأيه وامره فيهم ليضع حداً للاختلال
والحروب الداخلية وهو اذ ذاك قد ضم مصر الى مملكته
والغنى استقلاها

(٥١) وهذا كان اخر العهد بالبطالسة الذين افادوا العلوم والمعارف مالم
تُفدّه دولة قباهم لا سيما ان بالرياضيات والتشريح والمنطق كانت
الاسكندرية القطب الذي عليه مدار علوم المسكونة ولو انها
قصرت جلياً بعلم الاقتصاد والتاريخ وانحطت عن درجة اثينا بالفلسفة
وسلامة الذوق

(٥٢) واذا امعنا النظر باسباب عمران وخراب هذه الدولة رأينا بان
كلاً من فضيلة ام رذيلة من حكمة ام خُرق من اقتصاد ام اسراف
قد لاقى نتيجة وجنى ثماره فان الذهب المصري الذي جذب
اليونان اولاً لمصر وكان الوسيلة لاعلاء شأن دولتهم فيها هو
الذي ادى اخيراً الى فساد طبائعهم وبطرتهم واضمحلال نفوذهم
(٥٣) لاننا اذ كنا نرى في عهد بطليموس سوطير اى المختص اقتصاداً
بالمعيشة ونشاطاً على العمل واكراماً لاهل الفضيلة والعلم وسهرًا

على اقامة العدل وتمهيد اسباب الراحة وتحصين الاطراف وبناء المدارس وتسهيل غايات التجار واستشارة العقلاء مما جعل الاسكندرية زينة الدنيا ومحط رحال زهرة رجال اليونان والسوريين صرنا نرى بالزمان الاخير فساداً يعم الكبير والصغير

(٥٤) ولما خلفه ابنه فيلادلفوس قبل تاريخنا هذا وجد مملكة واسعة مطمئنة فصدّق امانها وجرى بها في درجات التمدن والعمران الى ان صارت اسواقها غاصّة بالتجار ومدارسها بالطلبة وفتوحاتها تتوالى برّاً وبحراً وصار هو اول ملوك زمانه بالقدرة والغنى والسيرة الحسنة حتي انه اعتُبر فيما بعد اعظم ملوك هذه العائلة

(٥٥) فكان المصريون بمهد هذين الملكين من اسعد الناس واحسنهم حالاً اخذين عن اليونان بعض فنونهم وعاطيهم دينهم فان الملك عرجتيس كان مصرياً أكثر مما كان يونانياً يغار على عظمة المعابد واكرام الكهنة كانه عامل بالوصية الدلفية « ان الالهة يقتضى اكرامها في كل محلّ طبقاً لشريعة ذاك المحل » الا ان الجنّد لم يكن حينئذٍ من هذا الروح فضعف تأثير الكهنة على الهيئة الاجتماعية واختلت المبادي عن الزمان الاول

(٥٦) وبالعهد التالي ظهرت آفات هذا الضعف والخلل فان فيلوباطر كان ملكاً فاسقاً تاركا الحكم لنسوته وحاشيته غير مكترث بالحوادث لا الداخلية ولا الخارجية ظاناً ان مملكته لم تزل

اعظم ممالك الدنيا بينما لم يبق لها حينئذ حقيقه من العظمة الا
الصورة والتقدم يخدم روما في قرطاجنه وسوريه تحت قيادة
انطيوخوس العظيم ثم مات فيلوباطر خلفا لولده الصغير عرشا يكاد
ان ينقض

(٥٧) فوزراء الملك القاصر وجدوا دولة لا راس لها ولا جيش وخزينة
فاغرة وشعبا بلا مروءة ولا فضيلة فاستعانوا بالرومان خوفا من تعدى
ملوك سوريه ومقدونيا

(٥٨) ومن ذاك الوقت اصبحت دولة البطالسة تحت حماية روما
الى ان صارت ملوكها تطلب اعانة الرومان تارة ضد اعدائها
وتارة ضد رعاياها واحيانا تستشير السناتو بمصالحها واذا لم تعمل
برائها قدمت لها عذرا فكانت الاحكام على هذا المنوال تدخل
رويدا رويدا بيد السناتو الى ان الظروف حولتها الاستيلاء على
حوران واسيا الصغرى والفيروان وقبرس ووصل البطالسة لدرجة
التملق لشرفاء روما فلم يعسر بعدئذ على اوقتاويانوس الملقب
باغسطوس ان يضم مصر للملك الرومان

(٥٩) وللبطالسة بنايات من معابد واساطين كان يظن بانها من قبل
زمانهم حتى فك كتابتهم الدكتور ينسج الانكليزي والافان
اعتناءهم كان شديدا بحفظ التقاليد القديمة والتباين الذي يظهر فيها
هو المالا بد منه على طول الزمان في كل بلاد فان البنات الجديدة

صارت اقل ضخامةً ومكنا وقطع المسلات قلّ ونحمت الاصنام
العظيمة وتشيد الاهرام توقّف وعمد المعابد تغيّر شكلها فان التي
كانت قديماً تُرى رؤوسها محفورة بهيئة ورق الغزار صارت ترى
مكائنة بشكل زهر البشنين واغصان النخل والتي كانت رؤوسها
ضخمة تناسب الحمل الذي فوقها صارت ترى احياناً بشكل رأس
امراة نحيف ما تعود على حمل اثقال ولا صخور

(٦٠) اما الدين فتراه في زمان البطالسة قد انتقل لآلهة جديدة ام قديمة
بصورة جديدة ، فان الاله هنيجو وهو النيل قد صار بصورة آله
النهر اليوناني يدفق ماءه من ابريق والقمر الذي كان يجلل رؤوس
الالهة قديماً صار لها باسم يوح ، وايزيس الالهة ذات العشرة
الاف اسم . ثم ان مقام الالهة تبدّل عن قبل فصار افتتاح
وسيرايس من الدرجة الاولى . وتغيرت اسماء الرجال والبلدان
فموضاً عن فت ايزيس وفت عمون وسيرايون صرنا نسمع
بعودتيس وهرموفنطوس وبوليقرات من اسماء الرجال وصارت
اشمونين تدعى هرموبوليس واسنات لاتوبوليس وخميس بانوبوليس
وثيبه ديوسبوليس . ونشأت مدن جديدة كالبطاسية ^(١) وفيلاسه

(١) نحو ١٤٠ ميلا تحت ثيبه ومحتها فيلاسه على بعد نحو ١٤٠ ميلا منها
على النيل اى بين القريتين الحديثتين المنشية والجرجه

وغيرهما ودخلت للكتابة صور جديدة كالزرافة والموميه الراقدة على سرير والمراكب ناشرة سراعها والعجلات بخيلها . وكثر استعمال الحروف واتسع التعبير عن الافكار بالكتابة حتى ان القاب الملوك زاد وصفها بطغرائتهم

- (٦١) ولما شاع استعمال ورق الفايفر للكتابة بالقرب من زمان دخول الفرس لمصر شاعت ايضاً الكتابة بالحروف وقلم الغزار وتشوشت صورها من ضعف صناعة الكتّاب فهي الان اعسرفكاً من المحفورة . واما ما طرأ على اللغة من التغيير فلا علم لنا به لاسيما ان معرفتنا بلغة ذاك الزمان محصورة بما نظنه يقرب منها وهي ترجمة الانجيل باللغة القبطية والحرف الرومي بعد سقوط البطالسة بثلاثة قرون (٦٢) ولما دخلت مصر في ملك اوقتاويانوس الذي سنذكره بعد الان بلقب اغسطوس كان القبط غير اولئك الذين عرفهم الاسكندر ولم يكن لهم من حظهم الاول من الاداب الاّ القليل فقلوا عدداً وافتقروا وتبلّهوا .

الفصل الثاني

عن سنة ٣٠ ق . م الى ٦٨ م

انتقال مصر الى حكم الرومان

اغسطس سنة ٣٠ ق . م

(١) ابتدا وقتا و يانوس الملقب الآن بأغسطس حكمه في مصر بكسر تماثيل انطوني فيها وكانت هذه التماثيل بالاسكندرية وحدها تفوق الخمسين ، أما تماثيل قلاو فطرا فانه أبقاها برجاء صديقها أرخيبيوس و ببرطيل منه بألف تالنت أي نحو مائتين وخمسة وعشرين الف ليرة من عملتنا الدارجة ، ثم أقام قورنيليوس غالوس الشاعر صديق ورجيل والياً على مصر

(٢) وكان القانون قبل سقوط الحكم الجمهوري أن لا يقام حاكم بأمالك الرومان الا من أعضاء السناتو فأغسطس لم يطلب الغاء هذا القانون لكنه طلب ولاية مصر وغيرها باسمه وبهذه الحيلة اخرج الولايات من حكم السناتو لحكمه الذاتي وصار يقيم لها من شاء نائباً

عنه الا مصر فانه ترك أمرها للسنانو محابةً منه والا فان السنا
كانت قد أمست اسماً بلا جسم فلا يصدر منها أدنى تحرش لولا
مصر بل كان هو الامر فيها ايضاً

(٣) ولكن بينما كان الحكم الروماني يترك لأكثر الولايات
استقلالها الاداري ، لم يستعمل اوقتايانوس من المصريين لاداء
بلادهم الا من كان لا بد منه كاللفتي لشرائع دينهم وليس فقط ا
أقام عليهم ولاية من غير أعضاء السنانو لا بل انه حرّم على هؤلاء
الأصلاء الدخول لأرض مصر الا بأذن منه وصار هذا قانوناً بعد
لأجيال عديدة حتى في الزمان الذي فيه صارت الرومان تحت
لاستعمال المسيرة . وقبل سن هذا القانون كان زار مصر الشاء
تيلأوس بصحبة صديقه السنانور ماسيلاً وحكى عن مشاهدته حزن
أهل منف على موت عجلهم ايبس وأخبر عن فيضان النيل ا
يكون عند طلوع الشعري اليمانية مع الشمس

(٤) وكانت السنة المصرية تبدى من هذا الطلوع والسنة الديوان
عندهم كانت من ٣٦٥ يوماً فرأس سنتهم كان ضرورة يتأخر
يوم من سنة لسنة (١) فأمر أغسطس باتخاذ حساب السنة المنسود
لقيصر من ٣٦٥ يوماً وربع يوم . واذا وقع رأس السنة المصرية بهذا

(١) وهكذا كان الحساب يتأخر شهراً كل ١٢٠ سنة وكل الف وخمسمائة
سنة تقريباً يم الدور فترجع الشهور الي فصولها الاولى

الزمان في ٢٩ سكتستيلس اي الشهر السادس عند الرومان جعل ابتداء السنة منه وصار هذا الشهر يسمى اغسطوس باسمه . ولبت هذا الحساب مستعملاً في اوروبا ستة عشر قرناً الى أن البابا غريغوريوس الثالث عشر أصلح خلله بوضع السنة الكبيسية . ولما أدخل أغسطس سنته الجديدة صارت مصر تؤرخ بثلاثة رؤوس سنة . سنة مصرية رأسها نحو ١٨ يوليو من اسم يوليو قيصر وسنة امبراطورية رأسها ٢٩ اغسطوس وسنة فلكية رأسها من طلوع الشعري اليانية مع الشمس

(٥) وهذا كان حداً اهتمام الرومان بدائرة العلوم الا أفراد منهم كقيصر الذي أمر بمساحة اراضي الاملاك الرومانية وقياس سكتها واغسطوس الذي امر الان بمساحة ارض مصر الى ان بطرف اثنتين وثلاثين سنة تمت مساحة اعظم القسم المعروف من السكرة لذلك الزمان ورفع به التقرير للسنوات ، وفي ما بقي فان اعتناء الرومان كله كان موجهاً للحرب والفتوحات

(٦) واذا كان اغسطوس بالاسكندرية جاءه هيرود متوسلاً باعادة أملاكه التي كان أنطوني قد أقطعها قلاو فطرا فأحسن اغسطوس استقباله وأجاب طلبه وزاده السامرية والمدن البحرية الحرة وأعطاه اربعمائة جندياً من رجال الغال كانوا من حرس قلاو فطرا الخاص واخر شاكرية البطالسة

(٧) وزار اغسطوس ضريح الاسكندر ووضع عليه اكليلاً من الذهب وآخر من الزهور وأما قبور باقي ملوك البلاد فلم ياتفت اليها ، كما انه زار منف ورفض أن يزور العجل ابيس مع ان الاسكندر زاره بزمانه وضعي له احتراماً لعقيدة القوم ولطقاً منه بهم . فكل اذاء بالذي فيه ينضح

(٨) لكنه أعاد لليهود الامتيازات التي كانت لهم من عهد البطالسة رغمًا عن كره اليونان لذلك ولقد أصاب لأن اليهود كانوا حينئذ اصحاب تهذيب واداب وغنى ومنهم خرج ابولوس العالم الذي يُعدُّ بعد الحواريين من أعظم المبشرين بالدين المسيحي وهو الذي نشره في افسس وقورنت واقريطش

(٩) ولما عاد اغسطوس لروما اخذ معه كل الدخائر والتحف التي اصابها بمصر فكان ما حمله من الفضة والذهب بالرغم عن افتقار البلاد بالزمان الاخير كافياً لأن يخفّض قيمة النقود في روما فتهاودت فائدة القروض فيها وتضاعدت اثمان العقارات هذا ما عدا الجواهر والتحف والاثاث الثمين مما جمعه من القصور الملكية ودخل به روما تحمله العجلات الضخمة وراء مركبته مع الاسارى اولاد قلاو فطرا من انطوني وبينهم تمثال امهم عوضاً عن شخصها وكان باخر الموكب تماسيح للفرجة منها زاحفة ومنها ساجحة في حوض تلاعبها رجال من بلد تنطيره التي كان أهلها خبرين بصيد وتربية هذا الحيوان

(١٠) وأراد اغسطس أن ينتقم من الاسكندرية فأمر ببناء مدينة بالمكان الذي ضرب فيه خيامه من جهة بابها الشرقي عند زحفه ضدها لتكون العاصمة الجديدة وسماها نيقوبوليس وبنى فيها المعابد ونقل اليها زينة معابد الاسكندرية وكهنتها ولكنه لم يتمها فهجرت بعد قليل وعاد كل شيء منها للاسكندرية ، كما ان الاسكندرية لم تنزل للآن أهلة عامرة تحمد بانها ونيقوبوليس لم يبق لها أثر ولا خبر لانها لم تؤسس على التقوى وسلامة النية

(١١) وحسب عادة الفاتحين بذلك الزمان نقل الرومان ما أمكنهم حمله من مصر لبلادهم فأخذوا تمثالاً محلياً بالذهب لاله يانوس نصبوه في معبده في روما بصورة من عمل نيشيا كانت من ذخائر المملكة الثمينة واشياء كثيرة غير هذه والمسلتين القائمتين للآن في بيارا دل بوبولو وفي مونتي تشيتورو من زمان اغسطس

(١٢) ورأى اغسطس بأن الوالي قورنيليوس غالوس لم يحسن السياسة في مصر فأبدله برجل حازم عاقل يدعى بطرونيوس

(١٣) فكان بطرونيوس يستخدم الجنود عنده لتنظيف ترع الري من الطين لعله بأن فائدة الفلاح تفيد جابي الخراج وفي أيامه صار بناء المقياس على جزيرة الفيلية ليعرف منه ارتفاع النيل

(١٤) ثم اذ كان بعد ذلك اليوس غالوس والياً على مصر في هذا العهد

أتى السائح الشهير استرابو زائراً مصر ورافق والي لسيينه (١) وترك لنا وصفاً شائقاً عن جمال الاسكندرية وعظم تجارتها التي كانت تفوق تجارة ايطاليا بأسرها فان المراكب فيها كانت تغطي وجه المرفأء وشطوط بحيرة مريوط ، وضواحيها تمتد لا بعد من هذه البحيرة ومنظر حصنها من جهة والمنازة من جهة كان من أبداع المناظر حسناً . والمعابد والقصور تجال أكثر من ربع البلد مثل السياما الذي كانت فيه قبور الملوك وقبر الاسكندر ودار المحكمة والموزيوم الجديد ومحل مجتمع التجار ومعبد نبتون والثيرمونيوم والقيصرية ومعبد سيرابيس البديع والجنازيوم ومعبد بان الذي يكشف من سطحه على البلد كلها والهبدوروم والبساتين البلدية غربي المدينة والمقبرة ذات البنايات اللطيفة على شاطئ البحر ما عدا القبور التي بالديماس وحفّات بحيرة مريوط المكسوّة بدوالي العنب الشهير بجودة خمره وجوانب التربة منها الى النيل المدبّجة بالازهار والاعشاب والاشجار الخضراء بين بهرجة الرمال البيضاء حوالها . وبعيداً كانت ترى بنايات المدينة الجديدة التي أنشأها اغسطوس . ولا عجب من هذا الوصف لعاصمة كانت فنون اليونان وغنى مصر مسخرة لزيبتها

(١) هي اسوان الحديثة بلاد عاد القديمة قرب جبل العاكي وفيه ذهب وفضة وجنوباً منها على خمسة عشر ليلة جبل الزمرد

بينما هليوبوليس العاصمة القديمة التي هدمها قبيسي لم يكن باق من
 آثار مجدها سوى البيتين الذين درس افلاطون وصديقه اودوقسوس
 بهما الحكمة . أما منف فانها كانت المدينة الثانية من مدن مصر
 لأن ثييه وأبيدوس كانتا قد صارتا بدرجة القرى . وعين استرابو في
 منف قتال الثيران وأذن له أن يطلع من نافذة على الثور المقدس
 أيس في مربضه . وشاهد بالتمساحية لقط التمساح المبارك وتغذيته
 بالحلويات والخمر . ورأى البطلمية تسكاد أن تضاهي منف بجماها نظراً
 لاعتناء الملوك بها بعد أن كانت لهم معسكراً فان بناياتها وقوانينها .
 كانت كلها يونانية كالاسكندرية خلافاً لباقي مدن مصر وكان
 موقعها بين بانوبوليس وايبدوس حيث هما الآن القريتان المنشية
 والجرجه وهما هي الآن قد انمحت بينما معابد ثييه القديمة العهد
 والبنيان لم تزل قائمة تشهد لها بالعظمة والشان . وزار ايضاً الصنم
 العظيم المكسور^(١) ولكنه أبي أن يحكم بسبب مصدر النعم منه
 عند طلوع الشمس عليه . وشاهد البئر في سمينه التي يقع قعرها على
 حفة الشمس الشمالية تماماً في أطول يوم من السنة . ورأى براءة
 النوتية بانحدارهم بالشلال في قوارب الخوص . وزار جزيرة الفيله

(١) اصلاً مثال امنحوطيف الثالث . ولما بهذا الزمان صار يصدر منه نعم
 على اثر زللة حصلت زعم الاغريق بانه ابن طيطون والفجر وانه ممنون

بالقرب من سيبينه حيث وجد نصف اهلها من القبط والنصف الآخر من السودان

(١٥) ومن سوء رأي هذا الوالي كان طمعه بغزو العرب باليمن وسلبهم لانه كان يرى تجارتهم الواسعة وكثرة ابلهم آتية مصر بالاحمال الثمينة من أموال الهند تعاض بها ذهباً وفضة من المصريين فظنها من محاصيل أرضهم فزحف ضدهم بعشرة آلاف مقاتل ومائة وثلاثين مركباً نزل بهم على شاطئ البحر الاحمر بدرجة ٢٥ من العرض الشرقي لكن أدلائه من العرب تاهوا به عمداً بقفارهم فلم يجد مدناً ولا شاهد عرباً لا سيما وان أهل الوبر منهم لما علموا بقدومه رأوا بأن الحرب من وجهه بأموالهم وماشيتهم انكى له بذلك الشول من مقاومتهم فأقام سنتين بطلبهم يحاذر من التوغل بالبر خوفاً من العطش الى أن بلغه تسطي السودان على مصر فهول راجعاً ولحق براكبه بدرجة ٢٤ من ذاك العرض وبعد احد عشر يوماً ارسى في ميوس هرموس من بلاد مصر على البحر الاحمر

(١٦) في المصور الاولى من تاريخ مصر كانت السودان تمتاز ببلغتها ودينها مع القبط أهل الصعيد لكن بعد تلك الازمان هاجر بعض العرب لافريقيا على شطوط البحر الاحمر ولما زار الصعيد استرابو كان عددهم قد تكاثر حتى صار نصف اهل مدينة قبطوس (١)

منهم وكان عليهم مدار نقل أموال تجار ثيبه لا بل ان المؤرخ يوبا الصغير الروماني يقول بأن السودان كان في زمان اغسطس بيد العرب الذين كان دأبهم الغزو وفخرهم القتال وغايتهم السلب واذا أصابوا منه شيئاً عادوا الى منازلهم مفتخرين بفروسياتهم . وكان قوادهم يدهنون وجوههم كوجوه اصنامهم بالزنجفر . فهؤلاء العرب لما وجدوا الرومان مشغولين باليمن زحفوا من مرو وبلاد الشلال الرابع على الصعيد تقودهم ملكة عوراء لكن اذ وصل غالوس الى مصر طردهم اولاً من ابو سنبل ثم ظل يطاردهم حتى دخل عاصمتهم نباطه (١) بجيشه المؤلف من عشرة الاف مقاتل منهم خمسةائة يهودي والاف عربي بينما اولئك العرب ان كانوا ثلاثين الفا انما اكثرهم لا سلاح لهم سوى الدرق والعصي والفؤوس ومجانيهم من الجلد . ووضع عليهم جزية يؤدونها للحامية تركها بينهم وعاد لمصر راضياً بمحدوده على سبعين ميلاً من سينه . وللان ترى في مرو قناطر رومانية بمعدن نجا (١٧) ثم جاء اغسطس زائراً صاموس فأرسلت له الملكة العوراء وفداً تستعطفه بترك الجزية فأجاب طلبها وهذا برهان على ان مرو كانت مدينة راقية مهذبة وليس كما يستنتج من حالة جيش الغارة المختلط بالبدو والذعران المجاورين لها . اما وراء مرو فلا يوجد أثر لمدينة لاسيما ان الجبال الفاصلة بينها وبين الحبشة الجنوبية البحرية لم

(١) هي الان السهامة جبل بركل على حفة الشلال الرابع

تكن تسمح بمواصلات بين الارضين وسكان الجنوب كان اكثرهم
يهوداً استوطنوا عدوله واقسيوم من عهد سليمان ومنهم من وصل
الى مرو ولاذ بالملسكة لاننا نجد فيما بعد ان خصياً يهودياً كان خازناً
عندها لا بل ان دين مرو ولغتها كانا بهذا الزمان ساميين حجازيين
لا قبطيين

(١٨) أما لسان مصر الرسمي وسكتها في عهد اغسطوس وعهد خلفائه
فكانا باللغة اليونانية حتى كان سواح الرومان اذا كتبوا شيئاً على
عاديات البلاد كتبوه بهذه اللغة . وكانت النقود منقوشة بهامة
الامبراطور واسمه من جهة والنسر المصري قابضاً على الصاعقة من
الجهة الاخرى . ثم صارت تؤرخ بسني جلوس الامبراطور وأولاً
كانت صفته فيها « ابن الله » عوضاً عن الوصف المصري القديم
« ابن الشمس » لكن لما صارت مصر ولاية رومانية افرغها الرومان
من الذهب والفضة وأبطلوا سكتها راضين بأخذ خراج الحبوب
عيناً وكان ذلك يبلغ حينئذ عشرين الف الف كيلة أو أربعة
أضعاف الخراج في عهد فيلادلفوس

(١٩) ولم يتحرج الرومان لدين المصريين لا بل ان معابد طنطيره
وطاميس وهي الآن قلابشه بالنوبه يرى محفوراً عليها باللغة
الكنهوتية اسم اغسطوس اوتوقراطاً وابن الشمس وملك الاريايف
والصعيد وغير القاب كانت توصف بها البطالسة وملوك البلاد قبلهم

وظلَّت السناتوكل عشر سنين تجدد انتخاب اغسطوس اوتوقراطا
وهو يتمتع محابةً منه الى أن تمَّ له بالملك اربعون سنةً

(٢٠) ولا ينكر بأن اليونان قد أخذوا دينهم عن المصريين فاقنيسوا
منهم اليقين بالبعث ويوم الحساب والجزاء على الاعمال ، والآن نرى
الرومان أيضاً ناصبين في روما تماثيل آلهة المصريين ومشيدين المعابد
لها والفقراء بشوارعهم يتوسلون للمحسنين بمحق ايزيس وورجيل
شاعر البلاط الملوكي يقول بقولهم بالبعث على رأس الالف سنة ، وكل
ذلك رغماً عن انكار اغسطوس هذا الدين وتحريمه على الناس .

(٢١) ومن علماء هذا الزمان كان سوتيون الفيلسوف الاسكندري
الذي عنه أخذ سنكسا بصغره علم الاخلاق . وكان من مذهب
بيثاغوروس بتحريم أكل اللحوم لزعمة بأنه من الجائز انتقال أرواح
البشر للبهائم المأكولة . وله تأليف لطيف جمعه من عدة مواضيع
وسماه قرنوقويا . وكان العالم أرخيببوس ناقل مزامير قاليماخوس من
رجال هذا العصر وابن ابولونيوس مؤلف القاموس المفسر
نشيد اوميروس . وكان بينهم أيضاً الشاعر تريفون والمنطقي
ارستونيقوس الباحث في اراء هزود بالتكوين وتسلسل الالهة
واسماء العالم بكتاب اوميروس وتيدمنالاوس ملك اسبارطا وعاشق
هيلانه

(٢٢) ولما مات اغسطوس خلفه طباريوس الذي سار بالناس سيرةً

حسنة فأحبته مصر واقامت الاسكندرية معبدًا على اسمه طرف
الرصيف محاطًا بالاساطين وبجدية ووضعوا فيه مكتبة . وكان على
أعلى أكمة بالمدينة وامامه مسلتان من عهد طوطمس الثالث وحفر
رمسيس الثاني احداها المسماة مسلة فلاو فطرا وهي القائمة الآن على
حفة التاميز في لندن وكان معهما مِرْزولة تقسم النهار الى اثنتي عشرة
ساعة على مدار السنة بدون نظر الى طوله وقصره صيفًا وشتاء
وذلك لعدم وضع الضلع منها على خط قطب الارض الشمالي كما
كان علّمه من قبل الفلكيون ايراطوسطين وهبارخوس

(٢٣) وابتدأ طباريوس حكمه في روما باقامة العدل الصارم والضرب
على أيدي الولاة الظالمين حتى ان لَمَّا حاكم مصر اميلIOS راقطوس
توهم بأنه يرضيه ببعثه له خراجًا منها اعظم كثيرًا من المعتاد كتب
اليه الامبراطور « قد وصلني ما أرسلته من الخراج لكن أعلم بأنني
انما أفتتكت على مصر لترعى غنمي فيها وتجزّي لي صوفها وليس لتساعدها
والسلام ». وكذلك اذ مات أحد الولاة ممن كانوا في مصر
ووجدوا ابن أمتعه تمثالاً للمنالاوس من حجر قبضي اسود كان قديمًا
يُعدّ من ذخائر معبد هليوبوليس أمر طباريوس برده لمكانه فلأجل
ذلك كانت الكهنة توقره وتودّه وترسم اسمه على المعابد . وفي زمانه
زيد الرواق البديع على معبد طنطيرا منقوشًا سقفه بمنطقة البروج
التي ظنّها العلماء اولاً من وضع الاقدمين مستقرين عظم التأنق .

بنقشها بذلك المعبد الضخم البسيط البنيان حتى فطنوا لبرج الميزان فيها الذي لم يمثل بهذه الصورة الا من عهد اغسطوس والأغرب بهذا الرواق هو تشييده بزمان كانت مصر فيه بالفقر والضيقة لكن اذا اعتبرنا بواعث التقوى زال الاستغراب او كما قال الشيخ ابن الفارض

« ولقد صرفت بحبه كلي على يد حسنه فخدمت حسن تصرفي »
 اما طنطيرا المذكورة فهي لانيوبوليس اليونانية واسنا الحديثة (٢٤) وفي السنة الثالثة من جلوس طباريوس اتي جرمانيقوس قيصر والياً على المشرق وصعد الى تيبه وسأل كهنتها أن يفسروا له الكتابات القديمة التي على جدران معابدهم فأخبروه انها تصف عظمة البلاد في عهد رمسيس اذ كان يخرج منها سبعمائة الف مقاتل أخضع بهم رمسيس ليبيا والسودان والفرس والكلدان والارمن والسوريين ووضع عليهم الجزية من ذهب وفضة وخيل وعجلات وعاج وبخور للمعابد وحبوب لأهل عاصمته . ثم انه زار صنم عمونوطف وسمع نغمة الشهير وزار الفيليه وسينيه وهي اسوان الحديثة وبأيابه عرج على الاهرام وبحيرة ميريس التي كانت تحفظ مياه طوفان النيل للري بعده . وشاهد في منف العجل المقدس ايبس وقدّم له بيده شيئاً من القوت ولما أعرض عنه العجل تفاعل الكهنة من ذلك واذ بعد قليل مريض هذا الامير ومات قال الكهنة بأن

فألم قد صدق فأسفوا عليه لأنهم كانوا قد أحبووه للطفه وكرمه
وتجولته بينهم بلا حرس ولا تكليف، وكانت زيارته لمصر ضد قانون
اغسطوس فعاتبه طباريوس على دخولها بدون اذنه . وهنا أقول انه
يظهر لي بأن «أييس» فيه تحريف لأن كتابته بلغة القبط تعادل Hupri
بلغة الاغريق ومعناها «الحنفي» فصحة لفظها تكون ايضاً «خفي»
لأن اليا والفا مترادفتان فيصبح الاسم عربياً . واما سيراييس فهو
اسم جديد مشتق من اسمين اوسيريس وايس

(٢٥) وكان يهود مصر في ذاك الزمان زهاء الف الف نسمة ،نقسم منهم
كان ثلث سكان الاسكندرية في حين من الخمسة احياء بالمدينة
لم فيها المشايخ والسندرين وهيكل في عينون بدلاً من هيكل
أورشليم الا لمن ظل منهم متمسكاً بسندرين اورشليم وهيكلها
ولكن بالرغم عن قانون قيصر الذي ثبت لهم امتيازاتهم القديمة
ومساواتهم باليونان كان مركزهم بالبلاد حرجاً لأن اليونان ظلوا
يحتقروهم والمصريين كانوا يحسدونهم على امتيازاتهم ويسمونهم
أولاد الشيطان تيفون

(٢٦) وكان بالقرب من الاسكندرية على تل بجوار بحيرة مريوط
طائفة من اليهود يسمونهم التيرايتيين قد تعلموا التنسك من
المصريين وتركوا لنا أول مثال من العيشة الرهبانية فيقول المؤرخ
فيلو عنهم بأنهم كانوا زهدهم بالدنيا قد هجروا منازلهم واهلهم وتركوا

أموالهم وجسبوا أنفسهم منفردين بصوامع لهم ،رجالاً ونساء ،منهم من لا يذوق طعاماً سوى ثلاثاً بالاسبوع ومنهم مرة واحدة بالاسبوع ولا يجتمعون الا في يوم السبت ،الرجال من جنب والنساء من جنب لابسين قميصاً يغطي ايديهم فيقف شيخ منهم يعظهم ثم يصاوت وينصرفون . وكانوا يعتقدون بأن للاعداد اسراراً فكان العدد السابع عندهم مباركاً وسبعة بسبعة كانت عندهم الاسبوع الكبير فيعيدون بالخمسين وفيه يأكلون سوية متكئين على القش طعامهم الخبز وشرابهم الماء ونقلهم الملح والجرجير ،يخدمون انفسهم ويستحرمون اتخاذ العيد وكانوا يحتمون اعيادهم بالشيد والتسبيح بصوت واحد ومترادين

(٢٧) هذا ما حكاه فيلوع عنهم ولكنه لم يذكر كيف كانت تُشد احتياجاتهم فأكثر الظن انهم كانوا يشتغلون بنقل التوراة ويعتاشون من اثمانها ولم يوضح ايضاً أسباب هذا الزهد الا أن تكون مما دعى غيرهم لمثله من قبل ومن بعد وهو ظلم الحكام وفساد طباع الجمهور بأزمنة اكثر من غيرها تتولد فيها كراهية للاختلاط بالناس وتطور بالعزم اللازم للقيام بالتكاليف الاجتماعية

(٢٨) وكان ايضاً فريق آخر من اليهود في فلسطين ينسكون على شواطئ بحيرة لوط الا ان تنسكهم كان عن قناعة وعمه لاعرف

(٤)

يأس وكره للعالم، طريقة المصريين القدماء الذين كانوا يقطعون عن معايشة الناس ويرون بالعذاب والشقاء فضيلة تكسبهم رضى الالهة فيهود مصر كانوا من هذا المزاج ومنه تولدت الرهبنة المسيحية في مصر بعد حين

(٢٩) وسنة ١٩م تنكر الرومان من اليهود في روما ونفوا منهم اربعة آلاف الى سردينيا لا لسبب دينهم لأن الرومان كاليونان لم يكن يخطر لهم قط التمسب لمذهبهم بل كان لسبب حفظهم السبت وامتناعهم فيه عن مشاركة الجمهور بالاحتفالات الرسمية فشك في اخلاصهم للدولة

(٣٠) وسنة ٢٣م قتل طباريوس بيت ضرب السكة بالاسكندرية لا سيما وان البلاد كانت بفقدها استقلالها قد فقدت سكتها الذهبية ولم يبق لها سوى عملة من فضة زائفة رومانية وصار الغنى والجاه لروما وما وجد فيها ذهباً بهذا الزمان من ضرب طباريوس هو قليل جداً باسم اغسطوس تذكاراً له كزوج امه

(٣١) ومن ولاية مصر في عهد طباريوس كان افلاقوس اويابوس عرف أطوار سيده فساس البلاد على أحسن منوال وحفر الكهنة اسمه مع اسم الامبراطور على معابد طنطيرا لسكرته تغير فيما بعد عما كان كما سنراه عن قريب

قالينولا سنة ٣٧ م الى سنة ٤١

(٣٢) وسنة ٣٧ مات طباريوس وخلفه قالينولا الذي كان يكره اليهود واذ نُصب تمثاله في معابد المملكة ولم تقبله اليهود بكنائسها فشتى عليهم الاغريق بالاسكندرية وجرور اغريباً ملك فلسطين بالاسكندرية سخروا منه للدرجة انهم البسوا صعلوكاً منهم تاجاً من ورق ووضعوا بيده صولجاناً من قصب الغرّار وداروا به الاسواق ينادونه باسم اغريباً وكان افلاقوس الوالي يرى ذلك ولا يعارض به لاستيائه من وجود شخص بالمدينة أعلى منه مقاماً مع ان اغريباً لم يمر على مصر بايابه من روما الا باذن الامبراطور ونزل الاسكندرية مساء كاحد الناس لا بل انه لم يأت بمركب من مراكب تجارة الاسكندرية الاّ لاجل الماء الذي تحمله هذه المراكب الكبيرة ويحلّ له الشرب منه خلافاً للمستقيات الخشبية بالمراكب الصغيرة التي لا يحل لليهود الشرب منها وذلك ربما من الفساد الذي يعتريها بالسفر الطويل

(٣٣) ولما رأى الرعاع عدم تحرش الوالي لسوء ادايتهم طمعوا ووثبوا على اليهود بمنازلتهم وكنائسهم وعاثوا فيهم ومزّقوا الاعلان المنشور بامتيازاتهم وحلّوا تماثيل الامبراطور لكنائسهم ونصبوها فيها غصباً عنهم واذ لم يجدوا منها ما يكفي غرضهم اخذوا بعض تماثيل البطالسة

من الجنازيوم ونصبوها بكنائسهم. ثم ان الوالي أصدر منشوراً به يصف اليهود بانهم دخلاء فازداد الاغريق حماقة واليهود خنقا واستعر القتال بين الفريقين ولكن يا ويل الفريق الاضعف والحاكم خصمه! فانهمزمت اليهود واحتمت بحمي من الحيين وانتهبت بيوتهم المهجورة بحميمهم الآخر وانسل منهم رجل لبيتاع قوتاً لاولاده بالخفية فسكبه الاغريق واحرقوه بالطريق ولأن الاغريق ادعوا بأن اليهود يخفون سلاحاً في بيوتهم قبض الوالي على ثمانية وثلاثين شيخاً من اكابرهم ليقرروهم بخفية السلاح ولم يكن لهم ما يكشفونه له فأمر بجلدهم بيد الجلادين المصريين زيادة في اهانتهم

(٣٤) ولم تصل اخبار هذه الحوادث للامبراطور حتى اغريباً بلغه اياها فغضب من عمل الوالي وبعث بالخال قائداً ومعه فرقة من العسكر للاسكندرية ليحضرها له هذا الظالم فلما وصلوا اليها نزلوها ليلاً وكبسوا الوالي وهو مع اصحابه على العشاء فمسكوه وقادوه لروما توتاً بالاغلال

(٣٥) وكانت اليهود في تلك الليلة بعيد المظالم فلما سمعوا حركة العسكر بالمدينة ورأوا المشاعل امامها خافوا خوفاً شديداً لثلاث تكون الحركة ضدهم، لكن اذ بعد قليل انكشفت لهم الحقيقة فرحوا وشكروا الله على خلاصهم من هذا الجائر وما من يد الا يدُ الله فوقها ولا ظالم الا سيُلبى بظالم

(٣٦) ورُخص لهم بعدئذٍ بارسال بعث يقدم شكواهم للامبراطور فارسلوا بعثاً يرأسه الفيلسوف فيلو وارسل الاغريق بعثاً يدافع عنهم يرأسه ابيون المنطقي فكان من هذا انه سألهم بدائياً بحضرة الامبراطور الم يرفضوا وضع تمثال جلالته بكسائسهم فلما اجابوه ببلى وقبل أن يوضحوا سببهم الديني قطع الامبراطور الحديث وفض المجلس معتبراً اقرارهم بحضرتة اهانة ظاهرة له ضد قانون الدولة ومستغرباً على زعمه حماقتهم فانسحب فيلو كئيباً وهو يقول ان يكن الامبراطور ضدنا فان الله معنا

(٣٧) واخبار هذه الحوادث وان اتتنا من مؤرخ يهودي فان لنا بصفات فيلو السامية ومنزلته من العلم وكبر سنه كفيلاً على صحة شهادته . وهو الذي عادت مدرسة الاسكندرية بعلمه الى زهوها بزمان البطالسة الاولين فانه كان يهودياً دينياً افلاطونياً مذهباً والمولد مصرياً ولا بد الآن لدارسي الحكمة والباحثين عن الدين من مطالعة كتبه ليروا كيف كان تدرج الافكار من مذهب الى مذهب حتى وصلت لمذهب الشهداء كيوستين وقلامنس المسيحيين الافلاطونيين وكان فيلو اول يهودي اخذ عن المصريين اعتقادهم بسر الكمال بالثلاثة من العدد وجمع الاسنى من حكمة افلاطون الى الاسنى من التوراة حتى كاد ان يكون مسيحياً

(٣٨) فبجاه هذا الاستاذ عاد لليهود بالاسكندرية روتهم الادبي حتى

صار الاغريق يلهجون بكلامهم ويرون له بلاغة وطلاوة لم يعرفوها من الوثنيين. واذ كانوا قد ابتدأوا من القرن الاخير ان يشعروا بانهم ليسوا خير البشر واصبحوا يعتنون بتفهم افكار جيرانهم نراهم الآن يعترفون بأن اليهود هم اول العلماء بمدرسة الاسكندرية

(٣٩) ونعم ان ابين الرومي الصعيدي خصم فيلوكان منطيقياً بليغاً ومصحح نشيد اوميروس الا انه لم يبق لنا من كلامه سوى رد يوسفوس على انتقاده على اليهود ومن كتبه سوى حكاية اندروقلوس والاسد بينما كتب فيلو تشهد لصاحبها بالعلم والفضيلة والتقوى التي لا يُعلى عليها

(٤٠) وقبل الوداع من قصة البطالسة يسوع ان نذكر بأن اغسطوس لما ساق سيلييا ابنة قلاوفطرا اسيرة لروما زوجها فيما بعد يوبا الصغير مؤرخ افريقيا واقطعهما بلاد المغرب بالارث عن والدها لكن اذ مات يوبا وخلفه ابنه بطليموس تغير عليه قالينولا ونفاه من مملكته فراح تائهاً في بلاد اليونان واسيا الصغرى حيث لاقى اكراماً يليق بابن البطالسة. ثم ان قالينولا احتال عليه وقتله فلم يبق حينئذ من عائلة مصر الملوكية اليونانية سوى دروسيلا حفيدة قلاوفطرا وانطوني زوجة انطونيوس فيلكس حاكم اليهودية الذي كان له قبلها زوجة اسمها دروسيلا ايضاً

فلوديوس سنة ٤١ م الى ٥٥ وطريق الهند بحراً وتجارة القرطاس

(٤١) ثم لما مات قاليغولا وخلفه فلوديوس حصل عند اليهود فرح عظيم فطاشوا وتجهروا بالاسكندرية متهذّدين الاغريق بسيوفهم وعلى رأسهم ديميتريوس زوج مريم ابنة اغريباً الاكبر يطلبون اعادة امتيازاتهم القديمة ولم يسكنوا حتى اصدر فلوديوس منشوره باعادتها (٤٢) وكان فلوديوس عادلاً حليماً لكن الولاة والعمال لم يكونوا كذلك فاجتهد باصلاحهم ووجد بالسنة التاسعة من ملكه ان مصر بحاجة لاعدالة فسن قانوناً لحفظ حقوق الشعب من التعدي والظلم وأمر الوالي قنيوس كيتو بنشره بالبلاد لكنه لم يقم قضاة داخل البلاد للحكم بموجب الشرع فكانه ما عمل شيئاً

(٤٣) وبني مدرسة بالاسكندرية سماها باسمه وامر ان يُقرأ فيها تاريخه عن قبطائه اياماً معلومة بالسنة وتاريخه عن ايتاليا بالمدرسة القديمة اياماً مثلاً. ونعم الامر ، لما للدرس التاريخ من الفوائد الذاتية والعمومية (٤٤) واعاد لمصر حرية ضرب نقودها وباول سنة من جلوسه بدأ بضرب سكهة البديعة بالاسكندرية وعليها تاريخ جلوسه وسنو ملكه مما أفاد المؤرخين افادة عظيمة وهناك فضل آخر لسكة الرومان على سكة البطالسة التي وان كانت لطيفة فان كتابتها المصرية كانت مشوشة واما تلك فكانت كتابتها ورموزها المصرية صريحة ومتعددة الشكل

(٤٥) وفي هذا الزمان اكتشف الاغريق والرومان على طريق الهند بحراً من مصر واتسعت التجارة من وراء ذلك اتساعاً عظيماً . فقد رُ المعاصر والمؤرخ بليني الاكبر قيمة الذهب والفضة الصادرة سنوياً من مصر للهند بأربعمائة الف ليرة . من عمالتنا الدارجة الآن ثمن الأموال التي كانت تجلب منها وتباع في روما بربح مائة بالواحد اي بأربعين مليوناً وأعظمها كان من الحرير والاملاس وأحجاراً كريمة أخرى ثم من التوابل كالزنجبيل والقرفة والبهار والفلفل عدا ما كان يجلب من أموال افريقية الجنوبية كالعاج وشن الكركدن وجلد فرس الماء وصدف الاطوم والقروود والسعادين والعبيد آتية بحراً الى برينقة وهي سواكن هذا الزمان لان البر عن طريق السودان واسوان لم يكن مأموماً . أما طريق الهند بحراً فكانت بالنيل الى قبطوس ومنها برّاً على الجمال الى سواكن مسيرة اثنتي عشرة ليلة أو مائتين وستين ميلاً . ثم كانوا ينزلون البحر في منتصف شهر يوليو عند طلوع الشعري اليمانية مع الشمس . وبعد ثلاثة ايام يصلون إما الى أوقليس على الشطوط العربية الجنوبية واما الى قانس على شطوط بلاد البخور من افريقية الشرقية بالقرب من خط الاستواء وهناك كان الرجب الموسمي (وهو ما تسميه الافرنج الآن مونسون) المكتشف عليه بذاك الزمان من النوتي هبالوس يحملهم فيخترقون البحر العربي الى موزيريس من ملابار الهند حتى يصلون اليها

بأواسط سبتمبر ثم اذا كان آخر دسمبر يقلعون كما اتوا ببضائع الهند الثمينة ولم يزل هذا الطريق هو الوحيد المعروف بين اوربا والهند الى ان اكتشف البورتغاليون بالقرن الخامس عشر على طريق رأس الرجا الصالح فتعطلّ طريق مصر والبحر الاحمر (كما تعطل طريق رأس الرجا الصالح بفتح ترعة السويس بآيامنا الحاضرة) وتأثر منه تجار العرب ومصر تأثيراً بليغاً لسبب انقلاب مجرى التجارة

(٤٦) وحكاية اكتشاف طريق الهند بحراً هي أن الرومان كانوا كعادتهم بأكثر أملاكهم ما خلا مصر قد ضمّنوا خراج وكرّك البحر الاحمر العائدة لهم لتاجر رومي اسمه انيوس فلوقاموس صاحب مراكب كان يستخدمها لهذه الغاية ويتاجر وأحياناً يقرصن بها حتى على شطوط العرب الجنوبية . فيوما ما طاح بأحد نوتيته مركبه مدفوعاً بريح شمالية قوية جداً فذفته الى الاوقيانوس وتاهت به خمسة عشر يوماً الى أن وجد نفسه على شط جزيرة لم يكن يعرفها فكانت سيلان وكان هو أول رجل اوروي أتاها لذلك الزمان وأفشى طريقها

(٤٧) وبجوار الطريق من قبطوس الى سواكن كانت مناجم الرخام السماقي وجبل الزمرّد المسمى القلودياني لان الامبراطور قلوديوس كان قد حماه لنفسه

(٤٨) ولما اشتهرت طريق الهند البحرية بدأ علماء الجغرافية يتحدثون عظم المسافة بين الهند وافريقية والا فان الجمهور لذلك الزمان كان يظن

بأن بلاد فارس هي بالقرب من الحبشة وكان اليونان يظنون بأن النيل يخرج من المشرق او ما كانوا يسمونه الهند وهي البلاد المعروفة الآن بالحبشة أما اليهود فكانوا يقولون عن النيل انه نهر جيحون الآتي من جنة عدن غرباً دائراً حول بلاد قوش اي الحبشة (٤٩) والمؤرخ بليني بكلامه عن صنائع مصريذ كر خصوصاً الكولان أي الفاير أو البردي الذي منه أخذ الافرنج اسم الورق لترادف الفاء والباء فقالوا « پاپر و پاپيه » فيقول بايني بأنه نبات من جنس القصب ينمو بالمستنقعات التي يتركها النيل بعد انتهاء فيضانه فيؤخذ منه الخشب للوقد وللأثاث والزهر لزيينة الأصنام والقشر لعمل الحبال والمراكب وحياسة الشراعات واللبن منه لعمل القرطاس الذي يوجد منه ما يصعد عمله الى ٣٦٠٠ سنة ق م وأجوده كان الكهنوتي الى ان كان عهد اغسطوس فصنعوا جنسين أحسن من الكهنوتي ، سموا احدهما اغسطي والآخر ليوياني من اسم امرأة اغسطوس وصنعوا أجناساً أدنى منهما كالفانياني والانفيتاتريك والسايستيك وأدناها كان يسمى امبورتيك لا يصاح الا للصبر وكان أجود هذا الكاغد رقيقاً شفافاً لا تمكن الكتابة عليه الا من جهة واحدة ففي عهد فلوديوس اخترعوا عمل جنس منه يصلح للكتابة على الوجهين وسموه القلوديانى . ويقول بايني بأن مصر كان لها تجارة واسعة جداً بالكتان والقطن أولهما يطاع بالقرب من تانيس

و بلوزيوم و بوطوس يالارياف والآخر بالصعيد ناحية النيل الغربية
وان مخازن الحبوب الكبيرة كانت بالاسكندرية واليهما جاء يهود
فلسطين بأول هذا العهد يشترون منها لما أمحلت أرضهم
(٥٠) وكان للمصريين براعة بالصبغ وتفنن بالألوان لا يعرفهما اليونان
ولا الرومان وكذلك بالحبر الذي كانوا يكتبون به على اكفان
الموميا وهو الذى نستعمله الآن للكتابة الثابتة على القماش . وكان
علمهم بالاجمال بطريقة تحليل الأجسام وتركيبها يفوق كثيراً علم
جيرانهم ، وهكذا لما العرب اخذوا عنهم هذا الفن سموه خيميا أي
الفن المصري ، من اسم مصر القديم « خيم » كما ان اسم النفط
مأخوذ عن المصريين ومعناه زيت الجبل الذي وجدوه على شط
البحر الاحمر من جهة الطور . وكان يظن لذاك الزمان ان لا وجود
للالماس الا في مناجم ذهب السودان . أما رخام مصر فالمعروف
منه اسماء كلها رومانية كالابسيدوني للرغام النوبي الاسود من اسم
أبسيدىوس المكتشف له ، والطباري للرغام الاسود المنقط بأبيض
من اسم طباريوس قيصر ، والاغسطي للرغام المعرق من اسم اغسطوس
والبورفيري للسمائي اللون الذي تفننوا بنحته بهذا الزمان أصناماً
وتماثيل أجسامها منه والوجه واليدان والرجلان من الرغام الابيض
تشبيهاً بالاشخاص المكسوة

(٥١) أما الحجر فان الذي كانت ترغبه اليونان والرومان بذاك الزمان

كان أعظمه من عصير بلاد اليونان وايطاليا وبعده كان المريوطي والنانيوتيك والفيومي ثم خمر انطلا شرقي الاسكندرية ثم وارد انطيفرا من ليبيا على بعد مائة ميل من الاسكندرية . واردا خمر كان من عصير الصعيد . أما الشعب فكان مشروبه من عصير الشعير ولكن أخطر الخمر كان المصنوع من النبيذ المصري وله الشهرة في روما وكان يصنع أيضاً خمر فوار كالشمبانيا في سبينييس يسمى عيطلون

(٥٢) والخمر الغريب كان يأتي الى الاسكندرية بجرار من الخزف على شكل البطة ذات عروتين عند الرقبة اكثرها من جزيرة رودوس وبعضها من قورنت واقنيدس على شطوط آسيا الصغرى ومن قبرس وشيو وطاسوس التي كانت فيها مناجم الذهب قديماً ومن عباه على الاورنتس ومن جنوبي البحر الاسود ومن صقاليا ومرو السودان التي خمرها كان من عصير التمر لكثيره هناك وكل هذه الجرار قد عرف اصلها من شقفها التي وجدت بتراب الاسكندرية وعليها اسماء هذه البلدان ومن شكل هذه الجرار صارت العرب تسمى جرة الخمر بطة

(٥٣) والسائح استرابو والجغرافي بومبونيوس ميلا يذكرون بركة موريس المصطنعة ووسطها هرمان صغيران كانت تسقي ألوفاً من الفدادين بجوار ارسينويه الا أنها كانت بزمان بليني قد جفّت وانحدرت مياهها الى بركة القثيون وأصبحت الأراضي حوالها قفراً ليس فيها

غير شجر الزيتون البرّي وذلك لانها كانت بمدة الخمسين سنة
الاخيرة قد أهملت وتعطلت جدرانها . وبهذا الزمان زيد في معبد
لا تو بوليس البديع المشاد من عهد البطالسة رواق منقوش عليه اسم
قلاوديوس وبعدها حفروا فيه أسماء خلفه وكانت عمده جميلة الصنعة
جداً رؤوسها بشكل اغصان النخل وزهر الفايفر والمعبد كان
مكرساً للاله اقنيب الذي له عدة اسماء عند اليونان يظن انها كلها
تحريف اخنبة بلغة القبط ومعناها الينبوع وكان في لاتوبوايس معابد
غيره لاله من جنس السمك

(٥٤) وكان اسم السنة بلغة القبط بيت وهو ايضاً اسم طائر عندهم وكان
اسم غصن النخل عندهم بي فزادوا عليه حرف التاء الذي هو
هكذا ■ ودائرة تحته وصاروا يعبرون بذلك عن السنة الى ان
صار البعض يسمون السنة طائراً او غصن نخل وكان اسم النخل
بلغة الاغريق فينكس فأخذوا هذا الاسم يرمزون به الى طائر خرافي
وهو ما تسميه العرب العنقاء وتقل عنهم الرومان بدون استقصاء
خبره فلما كانت سنة ٤٧ م وبها تمّ القرن الثامن من بناء روما
زعموا بأن الطائر قد جاء من مصر وزار مدينتهم وانه طائر عجيب (١)
يأتي من العربية على رأس كل خمسمائة سنة حاملاً رمةً أبيه التي خرج
من دودة منها ليلقيها بعشها المعطر ويحرقها على هيكل معبد الشمس

في هايو بوليس ثم يعود الى بلاده ،وبه استشهد المسيحيون على حقيقة البعث وذكره قلامنس أسقف روما برسالته الى القورثيين بهذا المعنى

نيرو سنة ٥٥ م الى سنة ٦٨

(٥٥) وعند موت فلوديوس خلفه نيرو، وظهر حينئذ في مصر رجل يهودي ادعى بأنه نبي وهيج اليهود للانتصار لآخوانهم في اورشليم فاجتمع اليه اربعة آلاف مقاتل على قول البعض او ثلاثون ألفاً على قول آخرين سار بهم اليها لسكرتهم بوصولهم لحدود فلسطين لاقاهم الحاكم فلاقوس ومزق شملهم . فمثل هذا التعصب من اليهود من وقت لآخر كان هو الذي يضرم الحقد في صدور الروم ضدهم وهكذا لما كان هؤلاء مجتمعين بالجنازيوم لانتخاب بعث يرسلونه لروما دخل بينهم بعض اليهود بدعوى المساواة بهم فوق اليونان عليهم وطردوهم كجواسيس وكادوا أن يقتلوهم لولا ان يأتيهم المدد من آخوانهم ويرسل الحاكم طباريوس بعض مشايخهم ليردوهم فانسد الخرق حينئذ لكن مالبث الشر حتى عاد بينهم فاقتتلوا أياماً واضطر الحاكم الى استدعاء خمسة آلاف من جنود ليبيا لمساعدته على اخاد الفتنة ثم قام بحراسة اليهود الى أن جمعوا قتلهم من الازقة ودفنوهم . اما قول يوسيفوس بأن قتلى اليهود بتلك الحادثة بالغ خمسين

الفأ ففيه ولا شك مبالغة عظيمة لما هو معروف من صداقة
الحاكم لهم

(٥٦) ولكن لما كان من سياسة المملكة ان الوالي يُعزل اذا وقع
شغب بولايته لأنه لم يتلافاه أمر الامبراطور بعزل طباريوس وابداله
بببيلوس الذي بوصله من صقليا للاسكندرية بستة أيام عُدَّ
سفره من غرائب الزمان بالسرعة . ولهذا الوالي تاريخ عن مصر ذكره
سَنَكَا بالاطراء عليه لكن لا وجود له الآن . ومما ينقل عن لسان
ببيلوس ان التمساح الذي لا يرى الآن تحت ثيبه كان كثير الوجود
بالارياف بزمانه وانه قد رآه يطارد الدلفين بالقرب من اسوان

(٥٧) وبهذا الزمان كانت مراكب الاسكندرية ونوتيتها أعلى شهرة من
سواها وتجارتها مع ايتاليا أعظم تجارة فحصلت لنوتيتها من وراء ذلك
خبرة كلية بالطريق حتى كانوا اذا ساعدهم الريح يقطعون مائة
وخمسين ميلاً بنهار وليلة أما اذا قاومهم الغربي منه التجأوا الى
شطوط آسيا الصغرى واذا لاقوا هيجاناً عظيماً بالبحر التجأوا الى
اقریطش او مالطه وربما دخل عليهم الشتاء فيهما فيظلون محتمين
بمكناهم لدخول فصل الربيع فلا يصلون الى ايتاليا الا بخمسة
أشهر ، وهذا عين ما توقع لبولس الرسول ورفيقه يوسيفوس المؤرخ
بسفرهما الى روما

(٥٨) ولأنّ خليج مالطه كان اوسع وامن مرفأً بالبحر المتوسط وماجأً

• استمرّ المراكب مصر وإيطاليا أصبح اهلها خليطاً من شعوب شطوطه.
ومن الجاحم التي وجدت بأرضها يظهر بأن أكثرهم كانوا مصريين
حتى في زمان الفينيقيين بانين المعبد الكبير فيها لاله مصر المسمى
من اليونان معبد خيم او اجياخيم . كما ان نقود الفينيقيين التي وجدت
فيها ترى عليها من جهة صورة اله صقليا ومن الاخرى صورة الثالوث
المصري ايزيس وعوزيريس ونفطيس والتي من زمان اليونان عاينها
صورة ايزيس من جهة وعوزيريس مجنحاً من الجهة الاخرى
ومثل هذه النقود وجدت ايضا بالجزيرة الصغيرة هنالك بين صقليا
وقرطاجنه المسماة قصيرة

(٥٩) في الخمس السنين الاولى من عهد نيرو وهو فاصر وتحت وصاية
الفيلسوف سنسكا كانت المداكمة مثلاً للعدالة والانصاف حتى ان
نقود مصر للسنة الثالثة من جاوسه على سرير الملك ضربت بصورته
وعلى رأسه تاج مصر المزدوج واسمه عليها « السعد الفتي » وكان
المصريون يشكرون من واليهم الجديد بلييوس اليوناني المصري الى
انهم قالوا بأن النيل قد اقتدى بكرمه واحسانه فاتى بزمانه وافياً .
اسكن اذ شبّ نيرو واستلم زمام الملك تحوّل الحلم الى الحاقة
والعدالة الى الظلم وعمل الولاة بسنة ملكهم حتى ان بلييوس الذي
اعطاه الامبراطور لقب طباريوس قلوديوس ايضاً تغير عما كان
فاظلمت الدنيا ونزل البلاء بالناس

(٦) ومن أساتذة نيرو كارن الفيلسوف خيرامون رئيس مدرسة الاسكندرية سالفًا وله تأليف صغير يشرح فيه طريقة الرهبان المصريين القدماء وكان زاهدًا بالدنيا ويؤثر الموت على الحياة فقال فيه الشاعر الحنّان مارتيل بأنه لكبر سنّه وفقره لم يعد يشعر بلذة الدنيا . أما علوم الاسكندرية فكانت بالقرن والنصف من حكم الرومان قد انحسرت بدرس المنطق

(٦) وكان رئيس مدرسة الاسكندرية لعهد تراجان ورئيس قلم الخببرات بالولايات أيضًا الاستاذ ديونيسوس تلميذ خيرامون له قصائد يتغنى بها بالنيل وبسبق المصريين أهل الارض بالتمدن والفلاحة والزراعة والعلوم وبجمال بلوزيوم الفينيقية الاصل التي نسميها بليس وبعض الاسكندرية المقدونية مدينته وبضم تيبه العظيم الذي تسميه اليونان ممنون مصبّحاً حبيبته اورورا (أي الفجر) وهي إلهة اليونان الخرافية المسماة أيضا ايوس والدة ممنون من أبيه تيطون . أما الضم فهو حقيقة بالاصل تمثال الملك امنحتيف بن طوطمس الرابع

(٦) ومن تقرير مؤرخي الكنيسة يظهر بأن ابتداء التبشير بالمسيحية بمصر كان سنة ٥١ من مرقس الانجيلي تلميذ بطرس الرسول ولكنه بالسنة السادسة من هذا العهد لحق بيواس في روما تاركاً الكنيسة الجديدة لعهد حنانيا ، انما لا يذكر التاريخ عدد المنتصرين الاولين

وذلك لأنهم كانوا من الفقراء والبائسين والثقيلي الاحمال الذين دعاهم يسوع ليكونوا شركاءه في ملكوت آبيه^(١)، أولئك الذين كانت كهنة سيريس تلعنهم وتطردهم من وجهها، لكن اذ تنصر الاغنياء والاكابر صار التاريخ يسجل الاسماء ويفتخر بالعدد

(٦٣) وحنانيا هذا هو المشهور بأنه كان أول أسقف للاسكندرية والمؤرخ عوزيبوس الذي كتب بعده ببائتي سنة يسرد لنا أسماء الاساقفة الذين خلفوه بدون انقطاع لذلك الزمان لكننا لا نجد دليلاً على جنسيتهم الاً من أسمائهم . فان حنانيا قد كان ولا ريب يهودياً كما كان مرقص أيضاً . انما خلف حنانيا نراه قد صار من اليونان وذلك لسبب انكسار شوكة اليهود وخراب اورشليم من الرومان بهذا الاثناء والا فان اليهود الافلاطونيين لولا ان فيلو المؤرخ يعين لنا أزمتهم التي هي قبل التبشير بالمسيحية لظنناهم من الاولين قبل أن تحتلط الحرافات والتقاليد اليونانية والمصرية بالمذهب الصريح وتغير مبادئه السامية الى آراء خسيصة

(٦٤) وبكل هذه الازمنة الاخيرة كانت حامية الرومان لا تتجاوز حدود برمبول وطاميس من أرض النوبة التي منها كانوا يستجلبون بالنيل حجر الرمل المرغوب للبناء وأما ما وراء هذه الحدود فكان متروكاً لتصرف العربان اسلاف البشاريين الحديثين اولئك الغزاة

(١) آبيه وايهم والاهه والاههم (انجيل عيد القيامة ليوحنا الرسول)

الذين كان القبط يهابونهم ويعتقدون بأن لا رؤوس لهم وان عيونهم
وأفواههم بصدورهم

«(٦٥) وما سوى ذلك فان مصر كانت بأتم السكون والراحة، حتى انه
لما القائد وسبازيان عجز عن اخضاع اليهود في فلسطين بالعشر
كتائب التي معه امكن لنيرو أن يسحب كتبيتين من حامية
الاسكندرية ويرسلهما مددآله تحت قيادة ابنه طيطوس. ووسبازيان
وولده طيطوس هما المرموز عنهما بسفر الوحى بالوحش الاول ذي
العشرة قرون الخارج من البحر والوحش الثاني ذي القرنين الآتي
براً ضد اليهودية

الفصل الثالث

سنة ٦٨ م الى ٩٧

غلبا اوتو ويتليوس وسبازيان طيطوس ودومييتيان

- (١) لهذا الزمان كان قد تم قرن كامل المملكة الرومانية تداول الحكم فيه خمسة رجال بصفة تشبه الارث لكن بموت نيرو انقرض النسل الجولياني والقلوديانى ولما صعد غلبا على كرسى الملك بارادة الجند حاول أن يوهم الشعب الرومانى اكتسابه الحرية
- (٢) ثم أبدل حاكم مصر بطليمير يوس يوليوس اسكندر ابن حاكم سالف بها من هذا الاسم ومن منشور هذا الحاكم الذى وجدت صورته اليونانية محفورة على عاديات المرج الكبير بينما الحوادث والانقلابات بالارياف دكت المعابد فيها ومحت الاثار ، يعلم ما أراد غلبا اصلاحه من المظالم فانه يجرّم اجبار أفراد الرعية على تحصيل الخراج او سجن الاحرار لأجل دين ليس عندهم ما يفونه به ان لم يكن ديناً أميرياً أو تحويل جابي الخراج على مديون معسر أو أخذ مهر امرأة لوفاء دين بعلمها ، ويلقى كافة الضرائب التى وضعت بالخمس السنين الأخيرة ولأجل ابطال عادة التجسس التى كانت قد فشت بين الناس بعضهم على بعض بارتياح لها من الحاكم

بالاسكندرية أعلن بأن أيّ انسان اشتكى على الآخر مخفية ثلاث
شكايات ولم يثبتها يُعزم بنصف ماله ولا تقوم له شهادة او تسمع
له دعوى امام الحاكم فيما بعد . ولأن الخراج كان يؤخذ عادةً على
المسقي بالغيل والدولة صارت تطالب به بحسب مساحة الاطيان
زاعمة بأن مسئولية تعطيل بعض المزارع من انسداد الترعات عائدة
على الفلاح ، أمر بالعمل بالعادة ومن هذا الباب ما جاء بالحديث عن
نبي العرب ، ما سُقي بالغيل ففيه العُشر وما سُقي بالدلو ففيه نصف
العُشر، ومن هذه القوانين يظهر بأن الناس كانت باحتياج للرفق
والعدالة

(٣) لكن حكم غالباً لم يطل لان الذي يرفعه الجند يحطه الجند
خلافًا للحاكم المستند على عهد الامة وذمتها . فبعد سبعة أشهر
انتقض عليه الجند وقتله . وما وجد من النقود بعد ذلك باسمه
مضروباً بالسنة الثانية من ملكه معناه انه ملك بأواخر سنة
ودخلت عليه سنة جديدة بالملك وهذه كانت عادة الاسكندرية
بضرب النقود

(٤) وعند موته سلّمت روما زمامها لاوتو وتبعها المشرق وضربت
الاسكندرية النقود باسمه . ثم اذ بعد ايام اتاها الخبر بقتله من جنود
الجرمن التي بايعت قائدها ويلىوس وضربت نقودها باسم هذا
لكنها بعد قليل انكرته أيضاً وبايعت وسبازيان مختار جنود سنورية

- (٥) واذا وافى وسبازيان الاسكندرية باغته قتل ويتايوس بعد ثمانية أشهر من جلوسه على كرسي روما وان جنودها وجنود الجرمن تريده ففرحت الاسكندرية بذلك وزينت وضربت نقودها باسمه وعليها كلمة « السلام » اشارة الى انتهاء الفوضى والازعاج الداخلي
- (٦) وكان ممن سعى بنجاح دعوة وسبازيان في مصر وهيباً له استقبالا لائقا، العلماء ديون والفرات وابولونيوس فديون كان خطيباً يُلقَّب بـمذهب الذهب والفرات كان فيلسوفاً افلاطونياً اقترن فيما بعد بابنة حاكم سورية وقطن روما وفيها اكتسب صداقة بابني الصغير وذكرهما حسناً جداً وأما ابولونيوس وهو أشهرهم وأصله من تيانه بالقرب من طرسوس فكان أول اغريقي طاف بلاد المشرق وأخذ عن حكماء بابل والهند وكهنة مصر علومهم وسجرهم حتى صار يُعَدُّ واحداً منهم وادّعى بالاثنيان بالمعجزات والنبوة ومؤرخه يقول بأن الشجرة المباركة كلمته ودعته بالاستاذ السماوي اما كتاب الوحي الذي رمز الى وسبازيان بالوحش وذكر النبي الكذاب الواقف امام الوحش فانه عني به ابولونيوس كما أنه هو الذي أشار اليه بواس الرسول بانه المنافق الذي سينكشف عنه الغطاء قريباً وذلك لانه كان قد زار طرسوس وانطاكية وافسس وخلب فيهن بفلسفته بينما كان الرسول بولس يعظ فيهن ايضاً بالمسيحية
- (٧) ولما رأى الاغريق نجاح الشعوذة كالتى آتى بها ابولونيوس رغبوا

فيها فراجت حرفة الكهنة وشاع ذكر سحرهم فمنهم من ادعى
 بـمناجاة الارواح ومحاوره الجمادات والبهائم ومنهم من ادعى معرفة
 أجل الانسان من خطوط جبهته فثبت اعتقاد الجمهور بالسحر حتى
 ان القديس ايرونوموس لم ينكره فيما بعد ولا ما كان يُنقل عن
 سحرة الوثنيين واليهود والمسيحيين بناءً على أنه علم لا سرٌّ روحاني
 (٨) وكان أبولونيوس لاتذاً بوسبازيان رافلاً بنعمته ووسبازيان
 يكرّمه ويصادق على دعوته ليسند بها سلطته امام الجمهور حتى انه
 لما طلب من هذا المشعوذ أن يدعي له بتأييد ملكه اجابه « اني قد
 مسحك امبراطوراً بسلطة من عندي » فصار المصريون يطلبون
 التبرك من وسبازيان أيضاً ولما تقدم اليه أحدهم وفي عينيه رمد
 وطلب اليه أن يبصق عليها زاعماً ان الالهة سيرايس قد ألهمته
 ذلك ليشفي ، وآخر قد سُلت يده طاب اليه أن يدوسها بقدميه
 لتشفى ضحك وسبازيان منهما لكنه اذ ألحّ عليه الناس ان يجيب
 طلبهما استدعى الاطباء واستشارهم فأشاروا عليه أن يفعل لأنه ان
 أفادها استفاد هو ايضاً ذكرًا وان لم يفدهما لم يضره ذلك وعلى
 قول المنزلين اليه بأنه فعل وأفاد . وهذا جائز بمثل هذه الامراض
 لكن لسبب طبيعي قائم بنفس العليل لا بسرّ في الطبيب
 (٩) ويقال ايضاً بأن وسبازيان رأى عجيبة وهي انه دخل يوماً معبد
 سيرايس للصلاة ولما انتهى الى الغرفة القصوى حيث الصنم رأى

الشيخ باسيلديس جاثيا هناك وهو يعهده طريح الفراش بعيداً ثمانين ميلاً عن الاسكندرية فلما خرج سأل الكهنة عن سبب وجود الشيخ الغرفة فأجابوه بأن لا علم لهم باتيانه المعبد اصالةً ودخلوا الغرفة فلم يجدوا فيها أحداً فبعث وسبازيان بالحال رسولاً لحل اقامة الشيخ ويقال بأنه وجده ملقاً على فراشه وعلى آخر رملق من الحياة

(١٠) ثم ان وسبازيان ردّ ابنه طيطوس لليهودية ليم فتح اورشليم فزحف طيطوس بجنوده برّاً الى نيقوبوليس ومنها قطع التربة الى طمويس بالقرب من منديس ثم مشى ليلةً الى تانيس وليلةً ثانية الى هيراقليوم وثالثة الى بلوزيوم حيث جاز النهر والرابعة كان في قاسيوم والخامسة في اوسنراتين حيث أخذ مؤنته من الماء وبالسادسة كان في رنينوقولورا والسابعة في رافيه آخر حدود مصر ومنها دخل أرض فلسطين

(١١) وكانت يهود الاسكندرية لا تبالي بما حل ييهود فلسطين وهيكل اورشليم لانهم كانوا من ثمانئة سنة وهم يحججون الى هيكلهم الجديد بعينون بالقرب من هليوبوليس ، لا بل ان أحدهم يوسف بن متياس الذي اشتهر فيما بعد باسم فلايوس يوسفوس المؤرخ كان من عدد الزاحفين مع طيطوس ، فلما وصل طيطوس امام اورشليم وأحاط بها كان المدافع عن عالي المدينة القائد سمعان وعن أسفلها والهيكل

الفائد یوحنا وھما الشاھدان اللذان یذکرھما کتاب الوحي لکنھما
احتلفا علی طریقۃ الدفاع . ورجعاً عن شجاعۃ الیھود أخذ الرومان
المدينۃ منھم وھدموا ھیکلھا فی شھر ایلول سنۃ ٧٠ م او علی قول
اوريجین بالسنة الثانیۃ والاربعین من صلب السید المسیح وقاد
طیطوس من أسارى الیھود حیثئذ سبعة وتسعین ألفاً لمناجم صعيد
مصر وھاجر کثیرون غیرھم لمصر ھرّباً من الجوع والشفاء راجین
المواساة من أهل دینھم ھناک لکنھم خیابوا لأن یھود مصر خافوا
لثلا ایلافھم ینکی الحکام فأنکروھم ورذلوھم وطردوھم ففرّقوا
بالصحراء تائھین ذاتقین کل أنواع الھوان والعذاب حتی ان قلب
یوسیفوس القاسی ذاته رقّ لھم فیما بعد

(١٢) إلا انه قد فات یھود مصر بأن سقوط عاصمة ملتھم واذلال أهل
دینھم من شأنه أن یسوق الى اھانتھم ایضاً فاننا نراھم محقرین من
الایریق متّھمین من الرومان حتی ان الحاکم لوبوس أقفل ھیکلھم
فی عینون ایضاً بأمر الامبراطور وساق کثیرین منھم بالاغلال الى
روما وساق یوسیفوس معھم فکان اسیراً الى أن عرفه طیطوس
فأطلقه

(١٣) ونعم ان لیوسیفوس فضلاً بالتاریخ لا ینکر وعنه نقلنا بعض أخبار
الیھود الاّ انه کان رجلاً بلا مروءة ولا ناموس کافراً بدينه وقومه
وامراته الغریبة لکنّہ برّہ علی طعن ایون بالیھود واحتجاجه بأقوال

فلاسفة الاسكندرية قد أفادنا أفكارهم وأفكار يهود ذلك الزمان التي لا وصول لنا اليها الآن من باب آخر

(١٤) أما سفر الحكمة المنسوب في بعض نسخ العهد القديم الى سليمان الحكيم فيظهر لنا بأنه من وضع أحد رجال هذا الزمان لأنه يذكرنا بأقوال فيلو وابن سيراخ ونفسه نفس يهودي مصري متصغر قد شاهد أعمال وسبازيان باليهود وعرف اهانتهم من المصريين ويمدح من العيشة الرهبانية ويزعم بأن الله لم يخلق الموت ويعظم الرجل الصالح الذي شتم وعُذِبَ لقوله بأنه ابن الله وبكلامه عن الخالق وحكمته وكلمته التي بها أوجد الاشياء ترى المطابقة على أول قول جاء بذكر الثالث من كاتب مسيحي وهو تيوفيلوس أسقف انطاكية

(١٥) ولم يكن الاغريق اكثر ارتياحاً من تصرف وسبازيان معهم لأنهم كانوا السابقين لمبايعته فلم يروا منه من المكافأة الا زيادة الضرائب واذا بلغه بأنهم يعيرونه بالبخل ويقولون بأنه طالب صديقاً له بستة دوانق كان قد أقرضه اياها شاط غيظاً منهم وجباهم مثلها عن كل رجل منهم ثم عفى عنهم برجاء ابنه طيطوس ورحل الى روما بلقب اليماق أي غسال الصحنون كما كانوا لقبوا سلوقوس قبله، ناهب تابوت الاسكندر الذهبي

(١٦) ولبت طيطوس في مصر نائباً عن والده فكان اطيقاً بالمصريين

محبوباً منهم واذ شاركهم باحتفالهم بالثور الجديد ايس لابساً التاج
الملوكي ليزيد ببهجة الاجتماع شكاه الاغريق بمزاحمة أبيه على الملك
(١٧) ومن آثار عهد وسبازيان في مصر كان اكمله معبد لاتوبوليس^(١)
الكبير للاله اقيف ، وهو من أبداع بنايات مصر القديمة ، فزيد عليه
رواق قائم على أربعة صفوف من العمد رؤوسها منحوتة بشكل
زهر النافير وعلى سقفها صورة منطقة البروج كما في معبد طنطيرا
واسم وسبازيان محفوراً فوق الباب الكبير

دوميتيان سنة ٧٩ م الى سنة ٩٧

(١٨) ولما مات وسبازيان خلفه ابنه الأصغر دوميتيان الذي أباح
لارومان دين المصريين وأقام في روما معبداً لآلهتهم ايزيس وابنها
هوروس ومعبداً آخر لسيرايس فاشتغل المصورون بعمل التماثيل
المثلة ايزيس وعلى حجرها ولدها هوروس ونقش صورهما الصباغ
على فصوص الخواتم وطلق الرومان يقدمون على اقتنائها اقداماً
عظيماً وراجت تجارتها حتى ان الشاعر يوينال المجان قال بأن
الرومان قد باتوا يتعيشون من فضل ايزيس، ولشدة حرصهم على طهارة
معبدها كانوا يستجلبون ماء النيل لغسله ولاغتسال كهنته . وبني
دوميتيان مدرسة فيه أحضر لها ما شاء من مكاتب الاسكندرية

(١) غربي منف على نحو سبعين ميلا لجهة النظرية

وزرع انفسه بستانًا على حافة نهر تير الذي فاق بحسن ورده
المصري الشتوي حدائق منف والاسكندرية

(١٩) وبزمانه كان الشاعر يوينال شيخًا وحاكماً عسكرياً على أطراف
صحراء مصر، فيخبر بأنه وجد الجنود الرومانية هناك خالعة العذار
لا أدب يردعها عن الفساد ولا مروءة تصدها عن الجور على السكان
والتقضاة لا يقدرّون على الوصول الى الحقيقة لمجازاة الجانين لأن
الشهود كانوا يخافون من قول الصدق ضد الجند

(٢٠) ولما كان هذا الشاعر مطبوعاً على الانتقاد رأى بعبادة البهايم من
المصريين ما يشحذ قريحته فيقول بأنهم لمبادتهم أكثر البهايم لم
يتروكو لقوتهم لحمًا يستحلون أكله سوى لحم بني آدم ويستشهد على
ذلك بما رواه من قتال كان بين مدينتي عمبس وطنطيرا البعديتين
مائة ميل عن بعضهما وكان أهل عمبس يعبدون التمساح وإلهًا
آخر برأس تمساح اسمه سواق بينما أهل طنطيرا كانوا يعبدون الثور
ولهم براءة بصيد التمساح فالتقوا يومًا ما بسيران كان لهم وتقاتلوا
فانهمز أهل عمبس إلا رجلاً منهم عثر وسقط فمسكه أهل طنطيرا
ومزقه واكلوه . ولأن اسم ملكة السماء عند المصريين هو
ايزيس واسم الكراث ايزي ظن يوينال بأن معبودهم هو البصل
فزاد بقوله عنهم انهم بعد عبادتهم البهايم والطيور والاسماك والبقول
لم يقيمهم معبود سوى إله العفة

(٢١) وحكى ايضا عن قتال آخر شاهده بين مدينتي اخيريونخون وقينو بويس لأن هؤلاء كانوا يعبدون الكلاب فاصطادوا سمكةً يعبدوها الآخرون اسمها اوقصيرينخوس واكلوها فقام أهل السمكة يقتلون الكلاب ويأكلونها واشتعل القتال بين الفريقين الى أن صدتهم جنود الرمان عن بعضهم

(٢٢) أما المؤرخ بلوتارخ فانه مع علمه بوجود هذه العقائد عند الجبال من الناس يقول بأن اعتقاد الكهنة انما كان بآله غير منظور وانهم كانوا لا يكتفون بالصلوة دون الحسنة ويزعمون بأن كلما اضرر منه حلال وما ضر فهو الحرام^(١) فلو حرکوا ناراً بالسيف كان ذلك حراماً لأن النار تضر بفرنده . ويقولون بأن ليس كل من لبس الكتان واغتسل وحاق رأسه بكاهن وان سُئِلوا عن اسم الآله أجابوا بأن الشمس واحدة أما اسماءها فكثيرة بلغات الناس وهكذا الآله . وكان لهم عيد للآله طوط يحتفلون به ليلة العشرين من الفمر يأكلون فيها العسل والتين اليبس وينشدون « طيبة هي الحقيقة » ولكنهم بوجه الاجمال كانوا كسائر أهل المشرق يعتقدون بوجود آله صالح وآله آخر شرير ويعتقدون بأن الآله الصالح مركب من ثلاثة بالعدد الذي هو عندهم صورة الكمال ، والزاوية التي بها يعبرن

(١) وهو مذهب فلسفي جايل عند من تبصر

عن عوزيريس وايزيس وهوروس . وكان عيدهم الكبير تذكاراً
ليوم حزن ايزيس على بعلمها عوزيريس الذي قتله تيفون ونشر
أشلاءه وبددها فجمعتها ايزيس ودفنتها ثم نشأ ولدهما هوروس
وثار بقاتل أبيه ، وانه كان لتيفون ابنان اسم احدهما هيروسوليموس
والآخر يهودا هما أعداء المصريين امكننا لا نرى أثراً يدلنا على هذه
القصة بين رسوم ثيبة القديمة فرجما انها مما جد بالارياف ومنهاركّب
الاغريق حكايتهم اللطيفة عن حزن وينوس على معشوقها ادونيس
أو انها مأخوذة عن حكاية استارته الالهة الفينيقية ^(١)

(٢٣) ثم بينما كنا نرى هوروس بصورة فتي وعلى رأسه تاج صرنا نراه
بصورة ولد صغير وأصبعه على فمه ، يعنون بذلك انه قاصر عن
الكلام ، فالرومان لم يفهموا هذا الرمز وحسبوه اشارة الى الصمت
فسموه إله الصمت

(٢٤) ولما تمت الاحدى عشرة سنة لحكم دوميتيان طلب من السناتو
اقلته فلم يقيأوه وبايعوه لعشر سنين ثانية فاحتفلت الاسكندرية
بذلك احتفالاً كبيراً وضربت نقوداً جديدة تؤرخ جالوسه الثاني
أتت من أبداع النقود المضروبة لذلك الزمان

(١) ويمثل هذا اليوم تحتفل الان مصر بعيد شم النسيم .

الفصل الرابع

سنة ٩٧ م الى سنة ١٨١

نروي تراجان هديران والانطونين

(١) النقود هي الاثر الوحيد لحكم نروي على مصر ولكنها تكفي
لثناء عليه لأنها تؤرخ رفعه الجزية عن اليهود التي كان قدرها نصف
مئقال عن كل انسان منهم وهو القدر الذي كان قديماً مفروضاً
عليهم لخدمة الهيكل

تراجان سنة ٩٨ م الى سنة ١١٧

(٢) اما أجمل النقود المسكوكة لذلك الزمان فكانت التي لتراجان
للسنة الحادية عشرة من ملكه فانها بدلاً من تشخيصها الانتصارات
الامبراطورية وفيضان النيل والالعب والتعبّد لسيرايس صارت
تنقش بالرموز المصرية واليونانية لابل ان كيتها بهذا العهد والذي
بعده فاقت كمية كل النقود المضروبة قبلها واكثرها كان من
النحاس بقطع صغير من وزن مائة وعشرة شعيرات الى مائتين
وعشرين شعيرة وهو ما صارت العرب فيما بعد تسميه المئقال الذي

هو تسع وتسعون شعيرة وبعض هذه النقود كان من فضة لكنها
غير خالصة

(٣) ورغمما عن احتقار الرومان المصريين واعتبارهم آداب وصناعة
اليونان فانهم كانوا يثقون بأطباء المصريين ويقصدون مصر
لمشاورتهم فكان أحد أطباء قيقروا منهم ولما هر بوقراط المصري
سقى بابني الأصغر من مرض كان بعينه كافأه هذا بأخذه له فـرأنا
يجعله رومانياً، واذ لم تجزله القضاة هذه الجنسية لسبب نسله التتري
تكافؤوا جعله أولاً يونانياً وثم رومانياً اي حرّاً

(٤) ومن اقتصادات تراجان الحسنة المذكور كان تـخز بنه بأهراء روما
خراج سبع سنين من حبوب مصر احتياطاً من جذب يطارأ على
زراعة مصر ويقطع واردها فجـرى خائفه على هذه القاعدة سنينا واثى
زمان أحملت فيه مصر وراث الاسكندرية انقلاب الآلية بأن روما
صارت تمدّها بالطعام وتشتخر باقتصادها وكرها على المصريين

(٥) ولهذا الزمان كانت الاسكندرية لم تزل قطبا لتجارة المشرق مع
أوروبا ومرسى لمراكب سورية تزدهم فيه السفن بتعاملاتها المختلفة
الالوان والاشكال وميداناً لتجار المسكونة من كل لون وري ولسان

(٦) أما أهلها فانهم على قول أحدهم ديون المقلب بقم الذهب لم يكونوا
حسني السيرة قط بل ان همهم كان بطونهم وفروجهم وسباق الخيل
وحرقهم التهرج ايضحكوا الرومان بسفاهتهم

(٧) وبعد أن كانت الرومان قد أخفقت بزحفها ضد العرب في عهد أغسطس نراها الآن قد احتلت حبر عاصمة النبط ولم تزل آثار احتلالهم لها اربعمائة سنة ظاهرة للآن

(٨) ومن آثار هذا العهد وبزمان حاكم مصر لوقيوس سوليقيوس سيميوس ما زيد على معبد بانويوليس^(١) بالصعيد باسم تراخان بالسنة الثانية عشرة من ملكه ورواق معبد سيرايس وايزيس بالمرج الأعلى بالسنة التاسعة عشرة من ملكه وأيام حاكم مصر مرقس روتيليوس لوبوس وكان تراخان بأول سنة من ملكه قد بنى معبداً صغيراً في دنديره بالقرب من معبدها الكبير تدكراً لزوجه بلوتينا باسم وينوس الفتاة ومع سكوت التاريخ عن حوادث هذا الزمان نفهم من صورة نقود الاسكندرية للسنة الرابعة عشرة لتراخان قدومه اليها آيلاً من فتح أرمينيا والعراق وبلاد العرب راكباً على عجلة تجرها أربعة أفيال ، ومن صورة نقوده للسنة السادسة عشرة من ملكه نفهم اقلاعه عنها بهيئة الإلهة ايزيس ماسكة شراعاً تدفعه الريح عن جزيرة الفنار

(٩) وبهذا الزمان حصل اعتناء باصلاح التربة التي بالقرب من

(١) وتدعى أيضاً خيميس وهي الآن اخميم ومها خرج ذو النون الاخميمي رئيس الصوفية

بوسطى التي هي الآن تل البسطه وكان أول خرقها من نيقو ثم
اعتنى بها فيلادلفوس لكن اضعف مصب النيل اليها بهذا الزمان
رأوا أن يجعلوا رأسها فوق ما كان لحفظها من تسطي الماء المالح
فابتدأوا فيها من بابل بالقرب من منف آخذين بها إلى هليوبوليس
ثم شيناوترانوروم وهيروبوليس وسيرايون إلى البركة المالحة العليا
ومنها إلى البحر الأحمر وهناك بنوا لها سدًا بموضع سموه قليسمون
على عشرة أميال جنوبًا من ارسينويه التي كان تراكم الرمل على
ساحلها قد أبعدھا عن البحر ولا يعلم كم طال استعمالها بل المعلوم بأنها
تعطّلت من عدم الاعتناء بها حتى أصلحها العرب عند استيلائهم
على مصر. وعليها بزمانهم ركب حجاج الافرنج بطريقهم لبيت
المقدس

- (١٠) ولما كانت الاسكندرية أم التزوير الكنائسي فبلا شك أن منها
خرج تركيب وصايا الأسباط الاثني عشر من تليفق يهودي متنصر
فأثار به تنجس المسيحيين لتبشيريه بعود المسيح على رأس الألف سنة
واليهود لاشارته بقرب رجوع ملكهم فهاجوا ضد الرومان وأقلقوهم
- (١١) والأرجح أنه بهذا الزمان أيضا نشر الشاعر حسقيل نشيده الحاسي
باللغة اليونانية بخروج اليهود الأول من مصر كأنه يغريهم بالخروج
منها ثانية، لكن لم يصل إلينا من هذا النشيد سوى بعض مقاطع
- (١٢) فيجود مثل هذه التصانيف كان إمامًا نتاج حركة أفكار يهود

ذاك الزمان إماً سبباً لها لأننا نراهم بالسنة الثامنة عشرة من هذا العهد هاجبين ضد الاغريق ، وبالي بعدها عاصين على الرومان . وكانوا بأول الأمر الفئة الأقوى بالقرى فهرب منهم اليونان للاسكندرية لكن لما اجتمع هؤلاء مع إخوانهم بالاسكندرية صاروا هم الحزب الأقوى فوقعوا على اليهود فيها وعاثوا فيهم . ولما انتصر لهم يهود الفيوان تحت قيادة أحدهم لوقواس تفاقم الخطب حتى اضطرّ الامبراطور لارسال جيش جديد وأسطول لمحاربتهم فأصاب منهم عدداً وافراً وهرب الباقيون للبراري والقفار تايهين يتلصصون

(١٣) فبمثل هذه الحماقات سقط اعتبارهم وضاعت امتيازاتهم بالملكة ومع خراب هيكلهم بأورشليم وقفل هيكلهم الآخر في عينون بأمر وسبازيان أصبحوا أذلاء قانطين فمالت أفكارهم للتوراة وتأويل النبوات المشيرة إلى زمان إتيان المسيح فتتصرّ منهم كثيرون إذا عصفت ريح الغنى قصفت أخا

عناء ولو بالفقر هبت لربّت

وربما أنهم بهذا الزمان قد كُلفوا ثانية لدفع الجزية التي كان نروى قد عفاهم منها

هدريان سنة ١١٧ م الى ١٣٨

(١٤) في السنة السادسة من حكم هذا الامبراطور النشيط نراه زائراً مصر بعد أن كان تفقد أحوال اسقوطلاندا شمالاً راجباً الاطلاع على أحوال مملكته برمتها . وربما ان الذي دعاه لزيارة مصر كان قتالاً ثار بين أهل منف وهليوبوليس لأجل عجل ادعى فريق منهم بأنه أبليس والآخر بأنه مناوس بعد أن كان قد مضى لمصر عدة سنين وليس لها عجل مقدّس . وإذ كان هديان صاعداً بالليل لزيارة ثيبه سأل المنجمين عن بخته فأجابوه بأنه لا تتم له السعادة حتى يفقد أعز ما عنده وكان نديمه الشاب انطينوس يسمع ذلك فقال اجعلني أن أكون أنا الفداء ورمى بنفسه لواء بالقرب من القرية المسماة بيسه فهلك وحزن الامبراطور لفقده حزناً عظيماً فشاد بذلك المكان مدينة تكون تذكيراً لمروءته سماها انطينوبوليس وزينها بالمعابد ولم تزل آثارها ظاهرة للآن ازاء هرموبوليس على الضفة الشرقية من النيل وصار الرومان يكرمون تمثال انطينوس كأحد الآلهة ويسيّمون له عيداً بالألعاب والسباقات مما كان يستغربه أهل الصعيد باكرام الآلهة ثم بالسنة السابعة من وفاته ضربوا له نقوداً بالاسكندرية باسم انطينوس الفني

(١٥) واجتمع الامبراطور بعلماء الاسكندرية وحادثهم وزار ضريح

يومي وأنفق مبلغاً كبيراً على زينة البلد وبنيات جديدة فيها فأكرمه أهلها بأن أبدلوا اسم شهر ديسمبر إلى هدریان ولكن إذ لم تتبعهم المملكة أعرضوا عنه . ومن العلماء الذين أكرمهم هدریان كان ديونيسيوس استاذ الفاسفة في مليتوس وافسس وبولميون الخطيب الذي كان يجتال في انحاء المملكة بحاشيته وخدمه على نفقة الدولة للخطابة

(١٦) أما علماء الاسكندرية بهذا الزمان فكان منهم ايبان مؤرخ الفتوحات الرومانية والمنطقي ابولونيوس الذي لنا منه حكاية الراعي الذي يقال بأنه رقد سبعا وخمسين سنة ثم انتبه (١) وحكاية رجل مات وظل شبحة يأتي بيته إلى ان ضجرت امرأته ولم يتركها حتى أحرقت موميته

(١٧) وعاد اليهود بهذا الزمان لعصيانهم فانهم سنة ١٣٠ قاموا بأورشليم ضد واليها تتيوس روفوس وحشد لهم يهود مصر والقيروان لكنهم أحفقوا ونكّل بهم

(١٨) ومن الكتابات العديدة على صنم ثيبه العظيم تعلم زيارة هدریان الثانية لها مع زوجته صاينا بالسنة الخامسة عشرة من ملكه وهي سنة ١٣١ التي تقود الاسكندرية تشير إلى دخوله اليها ، وتعلم أسماء

(١) ولعل هذه الحكاية هي المشار اليها بخبر اهل الكهف الوارد بالقرآن أو ان هذا خبره مما زعموا انه حصل بعد هذا الزمان

بعض ولاية مصر الذين لم يذكرهم التاريخ وإلا فإن أسماء الزائرين تكاد تغطي ساقى الصنم ولو أمكنهم للمأوا الثلاثة والخمسين قدماً منه بتفاهاتهم المعتادة أما الصنم المذكور الذي أصله من حجير واحد كان حينئذ مكسوراً ولما رآته الملكة صائناً ورآه قبلها استرابو ويويونال وبوزانياس كان نصفه على الأرض وإذ لم تسمع منه الملكة بأول صباح نغمه المشهور تكدرت فبالغد سمعته ^(١)

(١٩) ومن هذه الكتابات أيضاً عدة آيات باللغة اليونانية ايوليك القديمة التي هي ألطف مخرجاً من الدوريك تؤرخ زيارة هدریان وملكوته المدينة كما أننا نجد إشارة لهذه الزيارة بصور من الفسيفسا في البسترينا التي تبعد ليلتين عن روما، تمثل النيل وتمساحاً سابحاً فيه وحصان النهر وزهر البشنين والامبراطور قائماً بجذاء معبد هناك ومناظر من الصعيد والسودان وحيوانات كالزرافة والفهد ووحيد القرن والطير الخرافي فينكس وبئر اسوان الفلكي . والافرنج تسمى الفسيفسا موزاييكا وتزعم بأنها محرفة من اسم موزيوم الاسكندرية حيث وجدوا آثار هذه الصنعة لكن لا يبعد أن يكونوا قد أخذوا هذا الاسم من العرب فيكون محرفاً من مجزَع وهو أصلاً من احجار

(١) قبل انكساره لم يكن له نغم الذي سببه امر طبعي بصادف أحياناً بالصخور المنخورة عند الفجر من الهواء فيها متى سخن فيخرج صافراً

طبيعية أما الآن فأكثره من حجارة مُصطنعة ولها معمل بنفس
الواتيكان قد شهدناه فيه

(٢٠) وهان سبعين سنة قد مضت الآن على التبشير بالمسيحية من
مرقص الانجيلي وصار عدد المسيحيين بالاسكندرية كثيراً إلا ان
حالة البلاد اجمالاً لم تتحسن فاننا نرى هدریان يكتب حينئذ
لصديقه سرويانوس ما فخواه

« من هدریان اغسطوس إلى سرويانوس ، سلام . أما بعد
فصر التي كنت تطنب لي في مديحها أيها العزيز فاني أجد أهلها قومًا
بلا رصانة ولا تمييز فمنهم من يعبد سيرايس ويدعي بأنه مسيحي
ومنهم من هو من كهنة المسيحيين ويكرم سيرايس وليس منهم
كاهن ولا حاخام أو سامري إلا ويعمل بالسحر وكلهم محبوبون
على حب الفتنة والصلف والضعينة لكنهم أغنياء أصحاب همة وأهل
صناعة يعمل الزجاج والقرطاس والكسّان وعندهم حُرَف للعرجان
والعميان والمكتوعين يعبدون إلهًا واحدًا هو لا شيء ، وهانني قد
أوليتهم كل إحسان وأعدت لهم امتيازاتهم وزدتهم اعلمهم يشكرون
ويحسنون طويتهم »

ونرى على نقود السنة السادسة عشرة من هذا العهد صورة
الملكة متكئة على أريكة في مركبها اشارة إلى سفرها من
الاسكندرية

(٢١) وبالزمان الأخير إذ صار سيرايس أعظم آلهة المصريين قابض الأرواح والديان في اليوم الأخير ضعف يقينهم بغيره . ولما سُئل هاتف الغيب عن الإله أجاب « أنا را ، أنا هوروس ، أنا عوزيريس » أو كما تقول الروم « أنا أبولو أنا الرب أنا باخوص » أنا محرّك الساعات ومدبر الفصول مجري الهواء والأعصار ومعيد الليل والنهار أنا رب الأفلاك وأنا النار الأبدية القرار . فمن هذا الاعتقاد نتج اشتباه هدريان بدين القوم . وكان يريد أن يصيف المسيح إلى عداد آلهة الرومان لكنه كان يكره إقامة التماثيل بالمعابد حتى صارت العارية منها تعزى إليه فيما بعد . وكيف كان الأمر ليس من الغريب وجود نزعة من عقائد الأقدمين عند المنتصرين لذلك الزمان

(٢٢) فان المسيحيين الأولين كانوا يهوداً من معاصري الحواريين وحدوا بالمسيح المنتظر تميماً لدينهم . وأما القبط والاغريق فانهم أحالوا الدين لما وافق خرافاتهم الأولى ، وإياهم عنى بولس الرسول بتحذيره تيموتاوس من المنافقين . وكان قيرنطوس أول من سعى لتطبيق المسيحية على فلسفة الأقدمين فكان يزعم بأن يسوع هو روح من الأرواح التي يبعثها الأزي من زمان لزمان لتسوس العالم الأرضي ، وكثيرون يظنون بأن سفر الوحي هو من وضعه لما فيه من المشابهة لهذا المذهب

(٢٣) أما مؤسس المسيحية على المبادئ المصرية فهو باسيليديس القائل

بأن الهدى من الله وان المؤمن معصوم من الخطيئة وان المادة أزلية كالهيولى واغدود هو الإله الواحد ذو سبع صفات يسوس بها الكون (ربما هي العقل والكلمة والفكر والحكمة والقدرة والعدالة والسلام المذكورة بسفر الوحي) وان الشيطان هو إله الشر وكان يسمى إله الخير « ابراقاس » لأن معناه لا تؤذي ، ومجموع أعداد حروفه يجابو على عدد أيام السنة ٣٦٥ فكانوا يتبركون بهذا الاسم ويكتبونه على أحراز يلبسونها للوقاية من الأمراض والهفوات. كما ان من وصف المصريين إلههم هوروس بالخنفساء وصف القديس امبروزيسوع بالخنفساء الصالحة

(٢٤) ومن معاصري باسيليدس كان قريوقراطيس الاسكندري الزاعم بأن النفوس إذا شعرت بصفاتها الإلهية التي لها قبل التجسد تأهلت وأن يسوع كان ممن أشعر بها ، وكان يقول بأن آداب السلوك غير ضرورية . وخلفه ابنه ايفانيس على هذا المذهب وزاد عليه شيئاً من الفلسفة الافلاطونية . وبعده ظهر ايزيدوروس بن باسيليدس يعلم بمذهب أبيه في هذا العهد . وبالعهد التالي ظهر والتينوس الصبيدي المولد الجاعل الإله من ثلاثين اقنومًا . وظهر غيره بمذهب يسمى عوفيتا وهو إكرام الحية فقالوا بأنها المسيح أو أعظم منه لأنها أول عارف بالخير والشر وكانوا يصنعون أحرازاً بصورتها وباسم يهوه أيضاً كما باسم ابراقاس

(٢٥) وكافة هؤلاء القوم كانوا يعتقدون بالسحر والرقى ولهم كتب بالتعاويد والخطاب للآلهة والشياطين والاقسام عليها التجيب غرضهم وكتب أخرى بالتنجيم والفراسة ومكاملة الجمادات مع أن الفراسة علم طبيعي ومكاملة الجمادات من الشعوذة المحضة التي نسميها التكلم من البطن وكتب الرقى انما أساسها فكان ما نعرفه الآن « بالهينوتيسم » العلم الطبي

(٢٦) ثم اننا إذا نظرنا إلى الدين المصري القديم وجدنا بأنه قد جاز فيه بأن عوزيريس يُقتل وأن يكون مع رآ وهوروس إلهًا واحدًا وأن سيكون للبشر فادٍ منهم يوم الحساب

(٢٧) أما الكاتب المسيحي الذي يعتمد عليه بعد المعاصرين للحواريين فهو يوستين اليوناني الأصل السامري المولد الذي درس الفلسفة الافلاطونية بالاسكندرية وتنصر عن اقتناع عقلي ثم ذهب لروما مبشراً بالدين الجديد ولأنه أهان الأصنام فيها قتله الامبراطور أنطونيوس بيوس وصار يُعرف بيوستين الشهيد

(٢٨) وكانت العادة قد جرت بأن استاذ الفلسفة الافلاطونية بالاسكندرية يكون أثينياً فكان بالقرب من هذا الزمان استاذها اثيناغوروس، لكنه بعد قليل تنصر وهو ويوستين كانا أول العلماء المنتصرين لذلك الزمان لكنه لمّا خاطب الامبراطور مارقوس اوريليوس بهذا الدين لم يتجاوز فيه الشهادة بالبعث والتوحيد

وبأن المسيح هو حكمة الخالق وإرادته وبأن المحبة واجبة حتى الأعداء .

ولاعبث والناس لم يخفقوا سدى وإن لم تكن أفعالهم بالسديدة (٢٩) وبعهد هدریان كان ضرب النقود غزيراً وبشكل جديد فان منها ما كان عليه صورة مركب يدفعه الهوآء اشارةً إلى قدوم الامبراطور امصر بالسنة السادسة من جلوسه ، ومنها بالنامنة بصورة أنطینوس كأحد الآلهة، ومنها بالحادية عشرة عند تجديد انتخابه لعشر سنين ثانية ما عليه اسماء بعض جهات مصر والحیة الصالحة والشريرة وصورة ایزیس ربة العشق وسیرانیس ربّ الخوف وصورتهما مع ولدهما هوروس قائماً على نسر بعد أن كانوا يمثلونه برأس نسر فقط

أنطونیوس بیوس سنة ١٣٨ م الى ١٦٢

(٣٠) ولما انتقل الملك إلى أنطونیوس بیوس صادف ذلك انتهاء الألف واربعمائة وستين سنةً من دور التعری الیمانية الكبير (١) وهي النجم المسمى أيضاً سیریس والكلب الذي يطلع من

(١) أي ان الشهور ترجع فيه الى مدارها الاول وهو ما نسميه الافرنج « العام البلاطونيك » كما نسمي الهوى المنري « العشق البلاطونيك » أما بخلاف ذلك فالنسبة الى افلاطون وفلسفته هي « بلاطونيست أو بلاطونيسیان »

جنوب مصر بأبام قليلة قبل فيضان النيل ويبتدئ المصريون سنتهم من طلوعه و بدوره هذا ينتظرون رجوع طيرهم الخرافي ويتيمينون به فأقاموا لذلك الافراح وضربوا النقود بصورة هذا الطائر الميمون الذي تسميه اليونان فينيكس المذكور آنفا وفي هذا الزمان كانت مصر بطمان وأمان وفيضان النيل لا ينقص عن ستة عشر ذراعا في منف وهو الحد المرغوب من قبل ستمائة سنة بزمان المؤرخ هيرودوتوس ومنه يتضح بأن سطح أرض البلاد لم يرتفع عما كان قبل هذا الزمان الطويل (٣١) ولما شاعت حرفة التنجيم بين الاغريق صارت الاسكندرانية تضرب نقودها بصور الابراج . وفقراء اليهود وجدوا بذلك وسيلة لاكتساب المعيشة فنساءهم كنَّ يجلسن بالأسواق ينجمن للناس ويفسرن الأحلام . ومن أوراق وجدت مدفونة مع مومية في ثيابه تفصل طالما بتمامه بالدرجة والدقيقة مع أبراج الشمس والقمر والكواكب بذلك الوقت أمكن لنا معرفة زمان هذا الامبراطور تماما بحساب الفلك . ووجد أوراق غيرها تفصل أبراج كل ساعة من هذا الزمان بغاية الدقة والضبط لاستعمال المنجمين

(٣٢) لكن لم ينحصر علم الفلك حينئذ بالتنجيم فان كلوديوس بطليموس الفلكي والجغرافي كان إذ ذاك زينة مدرسة الاسكندرانية واليه ينسب اكتشاف دوران الشمس والقمر والكواكب حوالى الارض من الشرق للغرب مرة بالأربعة والعشرين ساعة ، والحال أن هذا

علم قد عرفه الأقدمون وهو أثبتته بالبراهين فصار ينسب اليه وبوضعه المجسطي مدونًا الكسوفات التي عرقها بابل والاسكندرية في مدة الثمانمائة سنة قبل زمانه قد أمكن لنا تحديد زمان ملوك بابل والفرس واليهودية ومصر تحديداً باتّناً. وبتفصيله طريقة عمل الكرة الأرضية ورسم الخارطات يكاد أن يحيط بهذا الفن على ما نعرفه الآن كما ان افاداته الجوغرافية تفوق بدقتها كل وصف من نوعها ظهر لذلك الزمان. وكتابه بالانعام هو أحسن ما لدينا من آراء الأقدمين بهذا الفن

(٣٣) وبهذا الزمان أمر الامبراطور بمساحة السكك العسكرية بالملكة وسموا ذلك الدليل الانطونيوني فكانت سكك مصر العسكرية ستاً أولها من النوبة إلى بابل على طول حافة النيل الشرقية وثانيها من منف شرقاً إلى هليوبوليس وحي اليهود وقليسمون حيث تمر بترعة تراجان للبحر الأحمر وثالثها من منف إلى بلوزيوم متصلةً بالثانية على مسافة ثلاثين ميلاً ثم عند بابل ومفترقة عنها عند شيناوترانوروم ورابعها من الصحراء إلى البحر الأحمر عن طريق سيرايمون خمسين ميلاً من قليسمون وهي أقصر من الثانية بنحو مائة ميل تمر بحافة النيل الغربية عند هيراسيقاميون بالنوبة إلى الاسكندرية منحرفة عن النيل عند اندروبوليس على بعد ستين ميلاً من الاسكندرية وخامسها من فلسطين الى الاسكندرية على شاطئ البحر المتوسط

من رافعه إلى بلوزيوم صاعدة برّاهربا من طوفان النيل بتلك
البقعة ثم لاحقةً بالسكة السالفة عند اندرو بوليس وسادسها من
قبطوس على النيل إلى برانيقه من البحر الأحمر وبينهما عشرة منازل
أو ما نسميه أيضاً قُنَاقَات بين كلِّ منها ليلة أو خمسة وعشرون ميلاً.
نعم ان سبينه كانت آخر حدود مصر الرومانية إلاّ إن سلطة
الرومان لم يكن لها فعل فوق هيراسيقاميون ابتعاداً عن مجاورة
عربان تلك الجهة من أسلاف البشارين وغيرهم أصحاب العيون
الحقيقة

(٣٤) ومن المؤرخ الريّان نعرف كيف كانت أحوال مُدُن شواطئ
البحر الأحمر بذلك الزمان والمسافات بينها والسكان فيها وأهمية
تجارة مصر الداخلية والخارجية إلاّ ان إذ كانت الأموال الواردة
لمصر تنقل من يد ليد وبلد لبلد بطريقها من بلاد العرب كان
الرومان يجهلون مصدرها الهندي والحبشي ويظنونونه عربياً. فان
المصريين كانوا يرسلون نسيج الكتان وأواني الزجاج والنحاس
والصفر لسك النقود والحديد لعمل السلاح ويستجلبون العاج
وسن الكركدنّ والفولاذ الهندي والحبر والحريير والعبيد
وصدف السلحفاء والمرّ والبخور والتوابل ولتسهيل غايات تجارتهم
في البلاد العربية كانوا يهدون ملوكها الخيل والبراذين وأواني
الفضة والذهب. ويذكر هذا المؤرخ تجارتهم بالحبوب والزيت

والفند ومراكب الخوص وهي أول مرة عبرنا بها على ذكر القند ومع ذلك يظهر بأنه كان صنفاً قديماً معروفاً، إذ لو يكن حديثاً لكان المؤرخ أشار إليه خاصة

(٣٥) ومن بعض الكتابات على سافي أبي الهول بالقرب من الاهرام نعلم زيارة هذا المؤرخ له وخبراً آخر كنا نجهله وهو وجود الأطباء بمعية الجيش الروماني فان أحدهم المسمى اسقليبياديس الكاتب اسمه هناك يقول بأنه كان طبيب الفيلق الثاني ومن كتابة على قطع من الخنزف بقلم رومي ردي بصفة وصولات بالرسومات على صادرات الحنطة والفول والجزية نعلم بأن الجزية التي كانت ستة عشر درهماً في عهد وسبازيان صارت بعده سبعة عشر درهماً فضة وهي بالنسبة لحال ذلك الوقت تحسب فاحشة إلا أن تكون مضروبة على أرباب البيوت من الرجال فقط

(٣٦) وبهذا الزمان صار بناءً معبد بالمرجة الكبيرة للإله عمون اقنيف وفيه تمثال الامبراطور رافماً قرايينه لهذا الإله ولعوزيريس وايزيس وهوروس. وبني أيضاً هذا الامبراطور مرسحاً بالاسكندرية لسباق الخيل، وبابين للمدينة سمي أحدهما المواجه للبحر شمساً والآخر المواجه بحيرة مريوط قرراً، وفتح بينهما طريقاً واسعاً يمتد إلى المدينة عرضاً لكنه لم يكن له ايخلو زمانه من البلابل فان أهالي الاسكندرية أثاروا فتنة فيها وقتلوا الحاكم وبنار خوص فاستحقوا عقاب الامبراطور لهم

مارقوس اوريلوس سنة ١٦٢ م الى ١٨١

(٣٧) ثم انتقل الملك إلى مارقوس اوريلوس فضربت الاسكندرية

نفودها باسمه، والتي للسنة الخامسة من جلوسه ترى عليها صورة انسان

عظيم الجثة متكئاً على تمثال أبي الهول وحاملاً بيده قرناً ملؤه

فاكهة وعنباً وحوالي العليج بين يديه ومن فوقه ستة عشر طفلاً

تُسمى ببلغة الرومان «كُوَيْيد» وكل ذلك رمزاً إلى النيل العظيم

وبركته وارتفاعه ستة عشر ذراعاً، وبلغة الرومان «كُوَيْيت». وكان

وسباريان تقل صنماً على هذه الصورة إلى روما وأقامه في قصر

السلام بصفة إله النيل . وبالسنة الحادية عشرة من هذا العهد ترى

على النقود صورة الإلهة ايزيس قابضة شراعاً تدفعه الريح لجبهة

المنارة إشارةً لقدم الامبراطور إلى الاسكندرية

(٣٨) وفي السنة المذكورة انتقض الجند المؤلف من العربان المستأجرة

وتفرق في القرى يعيث فيها فزحف القائد اوديوس قاسيوس ضدهم

ونكّل بهم وإذ عاد بجيشه منصوراً اعبت الحمية برأس الجند

فصاحوا باسمه امبراطوراً على المشرق فأذعن لهم ومشى بهم

الاستيلاء على سوريا تاركاً ابنه ميقيانوس حاكماً على الاسكندرية

فاستقبله جيش سوريا بالخضوع لكن إذ بعد قليل جاء الخبر

بزحف مارقوس ضدّه نكثوا عهدهم معه وقتلوه وقتلت جنود الاسكندرية ابنه وعادت البلاد اطاعة مارقوس (٣٩) وهو بوصوله الاسكندرية أعلن عفوّه عما كان ، وأكثر ما فعل بأولاد قاسيوس الآخرين فإنه أبعدهم تاركاً لهم نصف ميراثهم وكان يتجول بالمدينة كأحد الأفراد ويزور المعابد ويحضر مجالس العلماء بالموزيوم وأقام تمثاله بالمدينة لباساً الجبة الرومانية لا ، الملوكية كسلفائه

(٤٠) وكانت الاسكندرية لم تنزل قطباً اعوام الدنيا بأسرها لا مثيل لمكتبتها ولم تكن بعدُ قد أثّرت فيها المسيحية بل كانت اشتغال النساخ العديدين بجوار المكتبة ، وأكثرهم من البتات ، بنقل كتب الأقدمين بالخط الرومي الديواني والنسخي

(٤١) وأكثر كتب هذا الزمان بالخط الديواني كانت على الرقّ وقليل ما وصل إلينا منها ككتاب مسامرة الالباء للعالم أثيناوس من نوقراطيس بالقرب من سايس^(١) على حافة النيل الغربية الذي يقول بأنه جمعه من ثمانمائة كتاب مختلفة المواضيع . وقاموس واليريوس هر بوقراطيون الاسكندري يفسّر فيه كلام خطباء اليونان العشرة .

(١) الان صالحجر

والفتاوي الاثنية ويذكر سير الأشخاص الذين ألع اليهم الخطباء .
 وكتاب بالعروض يُسمى الانخير يديون من تأليف المنطقي هيفاستيون .
 وكتاب باصطلاحات التعبير والكلام المنحوت بسائر الفنون لذلك
 الزمان تأليف المنطقي يوليوس بولوقس من نوقراطيس أهده
 للامبراطور قومودوس . ونسمع بكتاب من تأليف خيرون معاصر
 بولوقس بأخبار كهنة مصر وتراجم ملوكها لكنه يا للأسف مفقود
 (٤٢) ومن كتب هذا الزمان أيضاً كتاب المحاورات للوقيان كاتم
 أسرار حاكم مصر يُستنتج منه ضعف اعتقاد الجمهور بمذهبهم القديم
 لأننا نراه يتجراً على السخرية من عبادتهم للبهائم والأباريق ومن
 حزنهم لموت العجل ايبس وتصديقهم بالسحر ونصبتهم الموميات
 حذاءهم وهم على الطعام كأنها تشاركهم به ووضعها رهينة عند حاجتهم
 للاستقراض وحلقهم رؤوس شبانهم إلا ذؤابة يرخونها فوق اذانهم
 النيني كمادة ملوكهم في ثيبه من قبل الفين وخمسة سنة

(٤٣) لكن لم يتم هذا العهد حتى تواترت الدلائل على انتشار المسيحية
 في مصر وأعظم برهان على ذلك أننا نرى مطران الاسكندرية
 مضطراً لرسم ثلاثة أساقفة لمدن الداخلية. والعلماء الوثنيين أكثر
 اشتغالا بالتدبير على المذهب الجديد ومن ردّ اوريجين على
 اعتراضات أحدهم قلسوس نعلم بأنهم لم ينفوا صحة الحديث الانجيلي ولا
 المعجزات المنسوبة ليسوع لكنهم يعتبرونها من نوع السحر وينكرون

قَدَامَةُ التَّوْرَةِ زَاعِمِينَ بِأَنَّهَا مَنْقُولَةٌ عَنْ مَذْهَبِ الْمَصْرِيِّينَ الْقَدِيمِ
بِالتَّوْحِيدِ وَيَحْتَجُّونَ بِأَنَّ عُلَمَاءَ الْيَهُودِ لَا يَرُونَ بِالنَّبَوَاتِ مَا يُشِيرُ إِلَى
مَجِيءِ الْمَسِيحِ بِذَلِكَ الزَّمَانِ وَيَدَّعَوْنَ بِأَنَّ الْمَذْهَبَ الْمَسِيحِيَّ يَثْبُطُ
الْهَمُّ عَنْ الْإِشْتَغَالِ بِالْعُلُومِ وَغَفْرَانَهُ لِلخَطَاةِ مِمَّا يُغْرِيهِمْ عَلَى الْمَعَاصِي
(٤٤) فَلِذَلِكَ نَرَى بِأَنَّ رَدَّ أَوْرِيْجِينَ عَلَى هَذَا التَّقْرِيعِ يَنْحَصِرُ بِتَأْوِيلِهِ
لِلنَّبَوَاتِ وَبِاسْتِشْهَادِهِ بِسُمُو آدَابِ الْمَسِيحِيِّينَ وَتَمَسُّكِهِمْ بِهَذَا الدِّينِ
رَغْمًا عَمَّا أَصَابَهُمْ مِنَ الْإِضْطِهَادِ وَالْعَذَابِ ، وَبِاسْتِنَادِهِ عَلَى النَّبَوَاتِ
يَبْرَهِنُ عَلَى أَنَّ الْإِخْتِلَافَ بَيْنَ الْيَهُودِ وَالْمَسِيحِيِّينَ إِنَّمَا هُوَ عَلَى تَأْوِيلِهَا
فَقَطْ بَيْنَمَا قَلَسُوسٌ يَعْتَرِضُ عَلَى قِصَصِ التَّوْرَةِ بِرُمْتِهِ وَخَبَرِ خَلْقَةِ آدَمَ
فِيهَا عَلَى صُورَةِ إِلَهٍ لَا صُورَةَ لَهُ فَلَوْلَا إِنْ جُمِعَ نِقْيَا فِيمَا بَعْدَ يَضِلُّ
وَيَكْفُرُ مَنْ خَالَفَ تَأْوِيلَهُ مِنَ الْيَهُودِ لَمَّا آلَ الْجِدَالُ بَيْنَ أَهْلِ الْكِتَابِ
إِلَى التَّلَاعُنِ وَالْعُدْوَانِ

(٤٥) وَمِنَ الْحَيْلِ الْمَصْرِيَّةِ الْمُنْكَرَةِ كَانَ تَلْفِيقُ الْكِتَابِ لِأَغْرَاضِ الدِّينِ
كَالنَّشِيدِ السِّيْلِيَّيْنِ الَّذِي هُوَ خِلَافُ النَّشِيدِ الْوُثْنِيِّ قَبْلَهُ مِنْ هَذَا
الْإِسْمِ وَالْقَلِيمَتَيْنِ أَوْ أَقْرَارِ قَلَامِنَسْ أَسْقَفِ رُومًا وَكِلَاهُمَا تَزْوِيرٌ مُحْضٌ
مِنْ عَمَلِ يَهُودِيٍّ مُتَنَصِّرٍ وَلَا شَكَّ لِأَنَّهُ يَنْكُرُ الْوَهْيَةَ يُسُوعَ الَّتِي
كَانَ مَتَمَسِّكًا بِهَا قَلَامِنَسْ رُومَانُوسُ كُلُّ التَّمَشُّكِ

الفصل الخامس

سنة ١٨١ م الى ٢٤٩

قومودوس . پرتينكس . نيجر . سويروس . قارقلا . مقرينوس
الاجابلوس . اسكندر . مقسيمينوس . بليينوس
آل غوردیان . فيليب

قومودوس سنة ١٨١ م الى ١٩٤

- (١) ابتدا قومودوس حكمة بقتله اولاد قاسيوس الذين كان أبوه قد اکتفی بابعادهم وحلق رأسه إلا دائرة بالوسط اقتداءً بکهنه مصر ليجوز له أن يحمل عصا أنوبيس بالاحتفالات الدينية
- (٢) وبزمانه كان الصعيد قد أمسى قلیل السكان فقيراً لضعف التجارة مع البحر الاحمر بطريق اسوان وخراب بلاد النوبة
- (٣) لابل ان تجارة الاسكندرية نفسها كانت قد خفت عن قبل من جراء مزاحمة مدينة قانوبوس على الضفة الغربية من النيل بالقرب من ابو قير لسهولة مدخلها للمراكب الصغيرة وخلوه من صخور

مدخل الاسكندرية فصار مصب النيل هناك يعرف بالمصب القانوني وهي المدينة التي انتقل اليها عدد من الكهنة قبل انتشار المسيحية والفلسفة الافلاطونية بالاسكندرية وفيها كرّس قومودوس هيكلًا اسيراييس وفيها كانت تصنع الجرار القانونية لحفظ أجزاء الجسد التي لا تصلح للتحنيط، رؤوسها من أربعة أشكال، شكل برأس بومه وشكل برأس كلب وشكل برأس أسد وشكل برأس انسان

(٤) ويرى اسم قومودوس بالكتابة الكهنوتية على معبد مدينة قونتالاتوبوليس أيضًا وهو معبد قديم من بناء البطالسة وربما انه لم يكن آخر امبراطور نُقش اسمه على معابد مصر القديمة إلا أن المعابد التي من بناء الاغريق قد انمحي أثرها ومعابد الصعيد التي عليها المعول بتاريخ مصر لم يتجدد شيء منها نظراً لفقر الكهنة أولاً، وثانياً لظهور ضعف ييقين الجمهور القديم حتى أن القضاة أصبحوا لا يقيمون حكماً للعقائد المصرية، وعدا ذلك لانتشار المسيحية مع ما فيها من اليقين بالبعث ويوم الحساب المطابق للمدين القديم

(٥) أما الكهنة فكانوا لا يزالون يفتخرون بعلومهم ويحافظون على تقاليدهم وشرائعهم فكان كل منهم يحفظ عن ظهر قلبه الكتاب المختص بوظيفته من وصايا الاله طوط وهو مركزور اليونان وعطارد العرب وبتطوافاتهم الاحتفالية كان المنشد بينهم يتقدم الكل حاملاً

آلات الموسيقى ويليه المنجم حاملاً ساعة الرمل وغصن النخل المرموز به عن السنة وبعده يأتي المنشي حاملاً طوماراً وشاكلاً دواة ثم الحاجب حاملاً عصا التريفة وإناء الضحية وأخيراً يكون الكاهن رئيس المعبد وكليم الآلهة فهؤلاء الاربعة أصناف من الكهنة كانوا يحفظون عن ظهر قلبهم ستة وثلاثين كتاباً من هذه القوانين وكان صنف خامس منهم أطباء يسمونهم بستوفوري يحفظون ستة من الكتب الباقية ومن وظائفهم حمل الصنم بهذا الطواف . ومجموع هذه الكتب كان عندهم كالتوراة عند اليهود والانجيل عند المسيحيين

(٦) ولكننا رغمًا عن ذلك نراهم بهذا الزمان قد أصبحوا يلتمسون عذراً لعبادتهم الأصنام والبهائم بأنها بظاهرها الحسي أكثر تأثيراً على عقول العامة وأما الباطن منها فسرّه في صدور العلماء وهو أن الألوهية الخالق غير منظور وغير محسوس وهذا عين ما نقله عنهم افلاطون بعد ما أتى هليوبوليس لدرس علومهم وما هيئاً الأفكار لقبول المذهب الناصري أولاً ثم إلى مسخه مصرياً

(٧) وكان بالاسكندرية معبد مشاد من أربعمائة سنة أي في عهد فيلادلفوس مكرساً لقيريس وبروزرين الإلهتين الخرافيتين كدير للعداري الطاهرات اللواتي كنّ بالأعياد يطفن شوارع المدينة حاملات سلة مقدسة فشاع بهذا الزمان أن ما يحملنه ضمن السلة لم

يكن إلا الحية علّة الخطية الأولى والموت وإن طهارتهم غير صحيحة
فسقط اعتبار هذا الدير

(٨) فبانحلال عرى الدين القديم على هذا المنوال لم يبق للناس ما يجمع
كلّهم أو من إله يستجيب أدعيتهم فلما سمعوا بالإنجيل ومعناه
«البشرى» بادروا اليه وترجموا منه أحداً لأنجيل الأربعة بصورة لم
تكن اليونان تعتبرها ولم تصل إلينا لنحكم بها لأنها ضاعت بعد
انتشار ترجمة الكتاب برمته للغة القبطية

(٩) ومن هذا الحين ابتدأ الانقسام والخلاف بين المسيحيين وذلك
لأن أمزجة القبط أهل الصعيد نسل عبّاد ثييه الوريين كانت غير
أمزجة الاغريق المرحّين نسل عباد قبريس وبروزر بين أو برسوفين
فاولئك تعبدوا وتشفّوا ونسكوا وقالوا حاشا للمسيح أن يُصاب بل
شبه ذلك للناظرين وأن الله رفعه اليه سالماً حياً وأولاء رأوا بالدين
الجديد ما يشحذ قريحتهم على الفلسفة فقالوا بخلاف ما قاله القبط
وعُدّ هذا الاختلاف بينهم كفرّاً من الطرفين

(١٠) ومن ترجمة الإنجيل للغة القبطية كان ابتداء استعمال الحروف
اليونانية فيها فصارت من الشمال لليمين خلافاً لباقي لغات المشرق
إلا أن القبط زادوا على الحروف اليونانية ست صور من لغتهم
فصارت كلها ثلاثين حرفاً وتلك الصور التي لم يكن لها مخارج يونانية
هي ϣ ϣ ϣ ϣ ϣ ϣ أي ش ف ك ح خ ص ومن ذاك

- الوقت لم يعد استعمال لكتابة الكهنوتية سوى بالمعابد الوثنية
- (١١) وبهذا الزمان كان الفيلسوف المسيحي بنطانوس الأثيني الذي
 حذى حذو اثيناغوروس وأسس مدرسة الفقه المسيحي بالاسكندرية
 التي خرج منها بعده بهذا القرن مشاهير العلماء المسيحيين . إنما إذ
 تكاثر عدد المنتصرين بأواخر القرن التالي وجمع أخلاط الناس صار
 العلم بنظر هذا الجمهور كالكفر والزندقة ، والجهالة جلباب المؤمنين
 وكان بنطانوس أول مبشر بالحبشة بالمسيح ويقال بأنه أحضر معه
 للاسكندرية نسخة عبرية من انجيل الحواري متى عثر عليها عند
 أحد اليهود المنتصرين الذين عرفهم بأسفاره لكنها لا أثر لها الان
 فالموجود من ترجمتها اليونانية لا سبيل للانتقاد على صحته
- (١٢) ومن معاصري هذا الاستاذ كان العالم اقليمس الاسكندري
 وقد خلفه برئاسة المدرسة المذكورة وربما انه كان أول من فسر
 الكتابة الكهنوتية بالكلام اليوناني بوجه يقرب من الاكتشافات
 الحديثة . وله تأليف كثيرة لا يأنف فيها من الاستشهاد بأقوال
 افلاطون وهذا الصنف من العلماء هو ما تسميه الافرنج افلقتيق
 والعرب التصوف إذ إن الاعتبار فيه إلى حسن السلوك وصفاء
 الجنان وحصر الجدل بالأعمال لا الأقوال لأن العمل هو نتيجة
 العقل والجوهر أما القول فنتيجة الحس والعرض

برتينكس سنة ١٩٤ م وينجر سنة ١٩٤ م الى ١٩٦ م

(١٣) وقتل قومودوس خلفه برتينكس على كرسي روما ولا أثر له في مصر إلا بالنقود لأنه لم يعيش سوى ثلاثة أشهر

(١٤) وكان قومودوس قد استعمل قائداً يدعى بشينوس نيجري الأسود المحافظة على الصعيد من تعدي العربان الذين كانوا يسمونهم شرقين^(١) وكان هذا الرجل عاقلاً حازماً ساهراً على القيام بوظيفته يشارك أنفاره بأعمالهم الزراعية ويمنعهم من شرب المسكرات حتى انه لما حامية اسوان سأله يوماً أن يمدّها بشيء من الخمر أجابها بأن ماء النيل يكفيها وكذلك لما كانت موقعة مع العربان انهزمت فيها جنوده وشكت من عدم وجود الخمر عندها قال لها مئة فان العرب لم يكن لهم خمر أيضاً

(١٥) فلما مات برتينكس كان الاسود واليا على سورية فرفض مبايعة سبتيموس سويروس وأعلن نفسه امبراطوراً وبايعته جنود مصر فحشد جنوده ومشى بها لمحاربة خصمه سويروس في بانونيا من بلاد النمسا الحديثة فالتقى الجيشان في ميزيا على الساحل الجنوبي من بحر مرمر وقتل الاسود في مدينة قيزيقس التي العرب أخربتها سنة ٦٧٥ م ومحت أثرها وهي مدينة قديمة كانت على لسان من بحر مرمر

(١) سرازن بلغات أوروبا لا تليته سراقين

سبثيموس سويروس سنة ١٩٦ م الى ٢١١

(١٦) ولما مات الاسود أتى سويروس زائراً مصر واهرامها ونبييه ومعابدها وضحك من عبادة سيراييس والبهائم فيها ومنح الاسكندرية استقلالها الاداري لأنه لم يعد يحسب للاغريق حساباً يقلقه بعد انكسار شوكتهم وبنى فيها معبداً للإلهة الارض رحيا اليونان واوربش الرومان وحمائماً سماه باسمه

(١٧) وبهذا الزمان هاجر الاستاذ بروقلوس من نوقراتيس لعدم الراحة فيها من تقلب الأحكام قاصداً اثينا حيث أقام مدرسته وكان يأخذ من الطلبة مائة درهم أي نحو أربع ليرات انكازية من عملتنا الدارجة مرة واحدة على تعليمه وبانتقال هذا الاستاذ من البلد المذكور مستقط رأس اثينايس ويوليوس بواقس أفل نجم العلوم فيها (١٨) والمؤرخ الوثني اسبارطيانوس يقول بأن سويروس حرّم على الناس مذاهب اليهود والمسيحيين وأما المؤرخ المسيحي عوزيبوس فيقول بأن اضطهاد المسيحيين بالسنة العاشرة من هذا العهد قد كان فظيماً جداً في كل انحاء المملكة وفيها استشهد بالاسكندرية ليونيدس تاركا سبعة أولاد أكبرهم كان اوريجين الشهير فيما بعد. إذ ان الله سبحانه سخر له امرأة غنية ربه وعلمته فنشأ نابغة زمانه عالماً باللغة العبرية التي لم يكن يوناني يلتفت اليها وتمكن من قراءة

- التوراة بلغتْها الأصلية وذلك في مدرسة اقليمس
ومهما كان من الحديتين فاننا نعلم بأن الوثنيين لم يكرهوا اليهود
والمسيحيين عن غير دينية بل مجرداً عن أمر سياسي كانوا يخافون
معه من عصبية اليهود ودعوى المسيحية للمساواة بين الناس
- (١٩) فقال حينئذ تروتوليان القرطاجي ان الامبراطور يرضى من عبادة
المصريين للبهائم ويغضب من عبادتهم لآله غير منظور. ولما أغلقت
مدرسة الاسكندرية ظل اوريجين يعظ بالدين سرّاً إلى أن
انفجرت الازمة فعُيّن رئيساً للمدرسة بأمر المطران ديميتريوس ثم
اختلف معه واستعفى من وظيفته
- (٢٠) فخلفه بالمدرسة الاستاذ هيراقلاص وبزمانه ابتدأ اقدام الاجانب
للالسكندرية لدرس هذا الدين ومن جملةهم كان يوليوس الافريقي
آتياً من فلسطين ليأخذ دينه عن الاسكندرية بدلاً من الجليل
وانطاكية وهو الذي وضع تاريخه المسيحي مستنداً فيه على تاريخ
مصر لما نبطو وكلاهما مفقود الآن ولولا نقل عوزيبوس عن الافريقي
لما عرفنا عنه شيئاً ولا عن مانيطو
- (٢١) وبرهاناً على فقر مصر بهذا الزمان هو أن النقود التي ضربت
بالاسكندرية بعهد سويروس كانت كلها من النحاس أو مطلية فضة

قراقلا سنة ٢١١ م الى ٢١٧

(٢٢) ولما مات سويروس خلفه ابنه قراقلاً وجيكا لكن بوصولها لروما قتل قراقلاً أخاه واستبد بالملك وحده وكان قصيراً ضئيلاً وكان اليونان بالاسكندرية قد عرفوا سوء خلقه وبلغه بأنهم قد هجوه فلما كان بانطاكية بعث يخبر أهل الاسكندرية بأنه سيأتي لزيارتهم وليستشير الإله سيرابيس باموره

(٢٣) فاستعد القوم لاستقباله باللياقة والاكرام وهياًوا الهياكل لقرايينه وبوصوله للبلد دخلها بين المشاعيل والمصاييح والزينة والأنعام الموسيقية والروائح العطرية والزهور المنشورة وبعد أخذه الراحة قدّم ذبيحته بمعبد سيرابيس وزار ضريح الاسكندر وخلع عليه منطلقته الملوكية وزناره المحلى بالجواهر وخواتمه الثمينة فعجب الناس من خشوعه وتقواه وتعشموا خبراً

(٢٤) وإذا كانت المدينة غاصة بالمتفرجين وزاهيةً بالملاعب والأفراح ايلاً ونهاراً أمر الامبراطور بأن يجمعوا له شبان الاغريق بفسحة في ظاهر البلد ليستعرضهم وينتخب منهم فيلقاً وطنياً لها، فخرجت الوف منهم واصطفقت لاستعراضه يحفهم جمهور من أقارب وأصدقاء أتين للفرح معهم بهذا الامتياز فشئ الامبراطور بين الصفوف والجموع تهتف له بالنصر والبقاء بينما جنوده الرومانية تحيط بهؤلاء الشبان

عن بعيد ثم بدأت تتقدم رويداً رويداً إلى أن دنت منهم وأتمت الحلقة عليهم فانسل قراقلاً من بينهم وباعطائه اشارة للجند صوبوا حراهم نحوهم وصدموهم صدمة من لا يخشى قوداً وأعمالوا سيوفهم بهم حتى صبغ الدم وجه الشاطئ، وامتلأ قعر البحر من الفارين وعاد قراقلاً لانطاكية مشفقاً من اغريق الاسكندرية. ولكونهم عدلوه على قتله أخيه وضع سيفه الذي قتل به أخاه قرباناً على هيكل سيرايس وأمر بتسكير مراسح العاهم وقطع عنهم هدية الطعام المعينة لهم من الخراج ومدّ سوراً وسط المدينة يقطعها نصفين لزيادة تحصينها منهم إذ أصبحوا هم الأعداء والقبط الأصدقاء ومن أعضاء مجلس روما يدين الامبراطور بدينهم ويشيد معبداً لإلهتهم ايزيس في وسط روما

مقرينوس سنة ٢١٧ م الى ٢١٨

والاجابالوس سنة ٢١٨ م الى ٢٢٢

(٢٥) ثم إذ كان قراقلاً زاحفاً ضد الأكراد قتله أحد الجند، يقال بدسياسة من رئيس جنوده مقرينوس، فأعلن هذا نفسه حينئذ امبراطوراً وطار الخبر لمصر فضربت نقودها باسمه ولكنه بعد شهرين انتقض عليه الجند وقتله، ويقال بأن صاعقة هبطت عند

موت قراقلا على هيكلى سيرايس ولم تضر منه شيئاً سوى سيف
قراقلا الذى كان هناك فاذا بته

(٢٦) ولما مات مقرينوس بايعت جنود سورية باسيانوس بن قراقلا
وأخذت له بيعة مصر وأخذ هو لقب الاجابولس أى كاهن معبد إله
الشمس الفينيقي الأجل وحكم في روما إلى أن انتقض عليه الجند
وقتلته سنة ٢٢٢ وفي مدته أفرغت أنابر روما من خراج مصر المخزن
فيها وتعطل ما كان يراد من اقتصاد سلفه

اسكندر سنة ٢٢٢ م الى ٢٣٥

(٢٧) ولما مات الاجابولس غير مأسوف عليه، خلفه اسكندر سويروس
وكان شاباً لطيفاً حليماً فاستهان به اليونان ولقبوه بالسوري والكاهن
والخام

(٢٨) وبهذا الزمان اشتهر الاستاذ الافلاطوني عمونيوس سقاس
بغزارة علمه وعقله وصار تعليمه يُعرف بالافلاطونية الجديدة لكنه لم
يترك لنا من كلامه شيئاً نحكم به سوى شهادة تلامذته بلوتينوس
وحيرينوس واوريجين الافلاطوني ولونجينوس الذين أخذوا عنه
أجمل الصفات . ومن مدارسهم خرج فيما بعد اولئك اليهود
الافلاطينيون الذين كادوا أن يدعوا مسيحيين لولا ان مجمع نيقيا
يلعن اليهود وينفّرهم من الاتساب لهذا المذهب

- (٢٩) وأفضل علماء هذا الوقت كان اوريجين المسيحي السالف الذكر لكن لانكاره العذاب المؤبد والصلاة ليسوع أغضب أسقفه وتخلّى عن رئاسة المدرسة لتلاميذه هيراقلاص وهاجر للقيصرية سنة ٢٣١ ومنها انتقل إلى صور حيث أكرمه السوريون وكان يدحض مذهب مرقيون الذي اختلط بالقرن السادس بالمذهب المانويّ وهو أن إله الخير نور وإله الشر ظلام وفيه يقول المتنبّي ماجناً :
وكم لظلام الليل عندي من يدٍ تخبر أن المانوية تكذبُ
- (٣٠) وبعد قليل مات المطران وانتخب هيراقلاص لهذا المنصب وهو لما رأى ثقل الوظيفة من عظم انتشار المسيحية في مصر باشر برسم عشرين أسقفًا جديداً لمدن البلاد فصار هو أكبرهم لقبوه بابابا أي الأب الأكبر
- (٣١) واشتهر بهذا الزمان أيضاً من علماء الوثنيين هيروديان صاحب تاريخ روما من عهد مارقوس اوريليوس وهو زمان قلت مؤرخوه . ولوالده ابولونيوس قبله تأليف عديدة بعلم المنطق

غورديان سنة ٢٣٨ م الى ٢٤٣

- (٣٢) ومات اسكندر سويروس تاركاً ايتاليا عرضةً لمطامع القواد فدام التنارع بينهم لسنة ٢٣٨ حيث استقر الامر لغورديان بيوس حفيد غورديان حاكم قرطاجنه . فترى نقود الاسكندرية للسنة ٢٣٧ باسم

مقسیمین وباسم ابنه مقسیموس وباسم اثنين من آل غوردیان
لسنة ٢٣٨ وباسم مقسیمین ومقسیموس وبلینوس وبونیینوس
نیوس وغوردیان لسنة ٢٣٩

(٣٣) ولأن الفرس رأوا تضعضع المملکة الرومانية بهذا الزمان ابتدأوا
بالتسلي على أهلاکها الشرقية فزحف غوردیان ضدهم موقنا بالنصر
حسبا تعودہ الرومان من قبل لکنما فاتہ بأن جنوده كأخصامه كانوا
غير اولئك الذين عرفناهم قديماً ، فلاقى من جنود الفرس والعرب
والسوريين أنصارهم المجريين ما لم يكن بالحسبان فانهمزم من وجههم
ويقال بأن قائد جيشه فيلبوس قتله . ولم يمض زمان بعد ذلك حتى
خرجت مصر وباقي البلاد الشرقية من يد الرومان ليد الفرس
وكان الفيلسوف بلوتينوس قد ترك مدرسة الاسكندرية ذاهباً بجمعة
الجيش الروماني ليدخل بلاد فارس ويكتشف على علومهم لکنه لما
رأى فتش الرومان نجى بنفسه إلى إنطاكية بعد مشقة عظيمة ومنها
انتقل إلى روما حيث أخذ بتدريس الفلسفة الافلاطونية

فيلبوس سنة ٢٤٣ م الى ٣٤٩

(٣٤) وآل الحكم إلى فيلبوس فضربت الاسكندرية تقودها باسمه
وكان أصله عربياً من بصره ويذهب البعض إلى أنه كان مسيحياً
ولما لم تطعه أهل الدانوب أرسل عليهم القائد ديقیوس ، لكن هذا

انتقض عليه سنة ٢٤٩ وأعلن نفسه امبراطوراً فمضى فيلبوس ضده
وتلاقيا بالقرب من وبيرونا على بعد اثنين وسبعين ميلاً من وينيس
فانكسر فيلبوس وانتقض عليه جنده فذبحوه واستقر الملك لخصمه

الفصل السادس

سنة ٢٤٩ م الى ٣٢٣

ديقيوس . غالوس . واليريان . غليانوس (عصيان)
 قلوديوس . اوريليان (عصيان) طاقيطوس . پروبوس
 (عصيان) قاروس . ديوقليتيان . (عصيان الكبير)
 غاليريوس . ليتينيوس

ديقيوس سنة ٢٤٩ م الى ٢٥١

- (١) وكان اضطهاد المسيحيين مستمرًا لهذا الزمان لا لغيره دينية بل كما قلنا قبلاً لغرض سياسي وهو الخوف من أن المسيحية بدعواها إلى المساواة تنقض سيادة الرومان والاغريق على الشرقيين فكانت بنظرهم مزعزةً للأحكام ومحركة للعصيان كالكومونيسم بهذا الزمان .
- (٢) فلما تواترت السعائيات بهم لحاكم الاسكندرية اميليانوس بحجة إفسادهم أخلاق المصريين أخذ باضطهادهم فهرب منهم كثيرون للصحراء وطور سيناء حيث صاروا غنيمة باردة العربان ولكن

أكثرهم أنكروا دينهم استخلصوا من العذاب وكان من جملة الفارين ديونيسيوس أسقف الاسكندرية. ثم ان اميليانوس مات فعاد الأسقف لكروسيه ولما ذاك الجمهور الذي أخفى دينه أراد الرجوع للكنيسة وقبل الأسقف توبتهم، اعترض عليه بعض المسيحيين البعيدين عن الاسكندرية وجورحا كمها وشكوه لأسقف روما فحشد هذا أساقفة الملة ليفتوا بالخلاف فكموا لديونيسيوس مصوبين رأيه

(٣) وكان ديونيسيوس خلفاً لهيراقلاص برئاسة المدرسة أولاً ثم بالاسقفية ومن كتبه العديدة نفهم مذهبه بالتثليث ردّاً على من ذهب إلى أن الأقانيم هي ثمانية ومن قال انها ثلاثون وعلى مذهب بولس أسقف ساموسطا على الفرات بأن الكلمة والروح القدس هما صفتان لفعل صادر من الأزلي لا اقنومان مميّزان عنه. ومذهب سايبايوس أسقف بطليمائيس بالقرب من القيروان بأن الإله واحد أحد وهو نفسه الظاهر بصورة يسوع .

واليريان سنة ٢٥٣ م الى ٢٦٠

(٤) وخلف دقيوس غالوس وهذا خلفه اميلبوس اميليانوس. ثم انتقل الملك إلى واليريان سنة ٢٥٣ لكنّ تماذي هذه الانقلابات السياسية من عهد سويروس للآن معما نتج منها من القلق والاضطهاد لم

يكن لترك غير تأثير سيء على حالة مصر الاقتصادية فاننا نرى حركة تجارتها وصناعتها قد توقفت وعملها افتقرت وجاعت واجتحف الوباء نصف سكانها

- (٥) وكان القسم الشرقي من مملكة الرمان متروكاً بالسنين الاخيرة لعهد اوديناطوس السوري ملك تدمر الذي بحكمته وحسن تديره رفع شطره بمدة قصيرة لدرجة الممالك العظمى ووقى البلاد من تعدي الفرس، فلما آل الحكم إلى غليانوس بن واليريان وكان منهما بلذاته وشهواته لم يرَ بداً من اتخاذ اوديناطوس شريكاً له في الملك
- (٦) لاسيما وان الخبر بموت واليريان على يد سابور ملك الفرس كان قد زعزع أركان المملكة وصارت كل ولاية تباع حاكمها. فجنود سورية بايعت قائدها مقرينانوس امبراطوراً على المشرق وتبعها جنود مصر، وكان شيخاً كبير السن فأشرك ابنه مقرينانوس الأصغر وقيتيوس معه بالملك. وضربت الاسكندرية نقودها باسمهم مدة سنتين من الزمان لكنهم قتلوا ثلاثهم لما أتى دوميتيانوس قائداً جيوش اوريليوس امبراطور البلقان وطرق سورية بمساعدة جيوش اوديناطوس

غليانوس سنة ٢٦٠ م الى ٢٦٨

- (٧) وعند موت واليريان خلفه ابنه غليانوس على كرسي روما. وكان

حينئذٍ حاكم الاسكندرية اميليانوس، فيوماً ما ضربت الجنود خادماً له يونانياً لأنه قال لهم بأن حذائه أحسن من أحذيتهم فتجهمروا الاغريق حوالى قصره يشتكون من تمدي الجند ورشقوا نوافذه بالحجارة لكنه لم يعبأ بهم بل استدعى الجند لكفهم فشمت الجند بالاغريق وصاح باسم الحاكم امبراطوراً

(٨) وبايعته بقية جنود مصر فأعلن نفسه امبراطوراً باسم اسكندر وأظهر حزماً فائقاً بسياسة البلاد وأراح ثيبه من تسطي العربان وقطع الخراج عن روما لكن بعد قليل حضر القائد تيودوتوس بجنود غليانوس وحاصره بالبروخيوم إلى أن ظفر به فأماتته خنقاً

(٩) وكان هذا الحصار طويلاً بذل باثناثة رؤساء المسيحيين وسعهم لتخفيف بلايا الحرب فعلى طلبهم أذن تيودوتوس لغير المحاربين بالخروج من البروخيوم وكان أحدهم عوزيبوس الذي صار فيما بعد أسقفاً على انطاكية، يتجول بالخنادق لاغاثة الجرحى، وأحدهم أناطوليوس يسعى داخل الحصن بالصلح حقناً للدماء

(١٠) وكان واليريان قد أظهر أولاً رفقته بالمسيحيين إلى أن لوته حماقة الاغريق عن عزمه فعاد إلى اضطهادهم، أما غليانوس فانه لشعوره بضعف المملكة حينئذٍ ونظره كثرة المسيحيين والاعتبار الذي لهم بالبلاد رأى الترفق بهم أولى فأكرم أساقفتهم كرؤساء دينيين

محترمين من الدولة فتحسنت إذ ذاك حالة المسيحيين لدرجة لم تعهد من قبل

(١١) وعاد الأسقف ديونيسيوس لكرسيه فرأى الاسكندرية كالرحمة من أثر الحصار والطرق مملوءة من جنث ضحايا الجوع والوباء رغمًا عن اهتمام المسيحيين بدفن الموتى وعبادة المصابين غير مباينين بالعدوى التي ذهبت بكثيرين منهم ضحية مروءتهم وتقواهم

(١٢) ولقصر مدة مقرينوس واميليانوس واضطراب الاسكندرية لم تضرب بها تقود باسم أحد منهما بل ظلت باسم غليانوس كشريك والده أولاً ثم كامبراطور واوديناطوس شريكاً له

(١٣) وبإثناء هذه الحوادث تفهقت مدارس الاسكندرية من مسيحية وغيرها علماء وعملاً ما عدا مدرسة أناطوليوس المذكور بحصار البروخيوم الذي كان يميل إلى فلسفة اريسطلو وله كتابات في الرياضيات وميعاد الفصح وصار فيما بعد أسقفًا على انطاكية بعد عوزيبوس فانها كانت محط هذه الفلسفة بينما عمونيوس الوثني كان يفضل فلسفة افلاطون^(١)

(١٤) وبهذا الوقت كتب نيقوس أحد أساقفة مصر ردّه على قول الزاعمين بأن لقصاص التوراة رموزاً روحانية واستشهد بكتاب الوحي

(١) والفرق بينهما ان اريسطلو كان دهرانياً وافلاطون الهيئياً

فأجابه رئيس الأساقفة ديونيسيوس بأن كتاب الوحي المنسوب إلى الحواري يوحنا ليس له فلا يُستشهد به، على أن كثيرين يعزونه إلى قيرنطوس الغنوسطي^(١) لما فيه من المشابهة لأقواله وتوفي ديونيسيوس سنة ٢٦٥ ولكبر سنه لم يحضر مجمع انطاكية الذي حكم على بولس من ساء وسطه بالكفر

(١٥) ومن علماء هذا الزمان الوثنيين كان الاستاذ بورفيري الافلاطوني تلميذ بلوتينوس وخلف عمونيوس له تاريخ مفيد جداً عن زمان البطالسة، وغيره بالفلسفة المصرية وكتب طوط ونفاسها وكتاب في الطريق المؤدي للسعادة الحقيقية

(١٦) ولما كان اوديناطوس بقيد الحياة كانت هيئته ساطية على الفرس أعداء الرومان لكنه إذ قتل غيلة مع ابنه هيرودوس سنة ٢٦٦ واستلمت أرملة زينويا زمام الملك فقدت المملكة حسن تدبيره ورأيه فلم تستقم الامور بين الملكة وغليانوس ولما أرسل جنوده ضدها هزمتهم، وإذ مات هو سنة ٢٦٨ زحفت على مصر مدعية أنها من نسل قلاو فطرا وان البلاد إرث لها ولولديها هيرينوس وتيمولاوس

(١٧) فكان أمير جيشها زبده وانضم إليه القائد المصري تيموجين

(١) غنوسطي هو ما نسميه «العارف بالله» وضده اغنوسطي أي الكافر

ومعها من العرب والسوريين سبعون ألفاً فلاقاهم القائد الروماني
بروباتوس بخمسين ألف وهزمهم لكنه باثنا عشر القتال رأى بعض
جنوده ترتد فظن بأنها تهرب من العدو ولعظم تأثره من جبايتها
قتل نفسه

قلوديوس سنة ٢٦٨ م الى ٢٧٠

(١٨) فانقادت مصر حينئذٍ لرأي روما وبايعت قلوديوس وضربت
الاسكندرية نقودها باسمه

زينوبيا سنة ٢٧٠

(١٩) ومات قلوديوس سنة ٢٧٠ وخلفه أخوه قنطيلوس لكن هذا
مات أيضاً بعد سبعة عشر يوماً فاغتسمت زينوبيا هذه الفرصة
وزحفت ثانية على مصر وامتلكتها فضربت الاسكندرية النقود
باسمها وازدانت تدمر بسلب مصر ولم تنزل ترى فيها ثمانية أساطين
من رخام مصر السماقي طول كل منها ثلاثون قدماً كانت قديماً قائمة
امام بابي معبدها الكبير

(٢٠) وكانت زينوبيا امرأة جميلة المنظر سمراء عينا فواء الانف لها
صوت كصوت الرجال ثقية العرض لا كنسيتها قلاوفطرا وكانت
تكلم بلغة الرومان ولغة الاغريق التي كانت لغة دولتها الرسمية ولغة

القبط عدا لغتها السريانية، وكانت بيعيتها و بلاطها تجمع بين عظمة
ملوك الفرس واقتصاد البداوة. فمثلها امرأة ومثل حزمها جعل الناس
بذاك الزمان أن يعجبوا من رجل كغليانوس ضعيف العزم وامرأة
تسوس نصف المملكة بعزم وحزم الأبطال

(٢١) وجعلت زينوڤيا انطاكية و بلميرا عاصمتي مملكتها، احداهما لمقام
الضيف والأخرى لمقام الشتاء وتركت مصر ولاية تابعة لمملكتها
وكان دينها كلغتها سوريا صائبًا، فان اسم زوجها معناه بغية الالهة
ادونيظ واسم ابنها وبعلاطوس معناه بغية الإله بعل، وبما أن الكثير
من جيشها كان من العرب افتخرت بانتصارهم عربان الصعيد
وأصبحت أصعب انقياداً للاغريق وأعلى أنفًا

اوريليان سنة ٢٧٠ م الى ٢٧٥

(٢٢) لكن بجلوس اوريليان على كرسي روما نراه أولاً راضياً أن تكون
رينوڤيا شريكة له بالملك فضربت الاسكندرية تقودها بصورته
من جهة وصورتها من الجهة الأخرى لكنه ما لبث قليلاً حتى
اختلف معها فغاربها بجمص وأسرها وحملها إلى روما مكرماً مثواها
إلى أن ماتت بعد أن كانت الملكة أربع سنين في تدمر وبضع
أشهر في مصر

(٢٣) وترك اوريليان مصر لحكم ابنها وبعلاطوس وضربت

الاسكندرية تقودها بتلك السنة بصورة اوريليان من جهة لأول سنة من جلوسه وصورة وبعلاطوس من الجهة الأخرى للسنة الرابعة من ملكه كانه يعد سني ملكه من موت أبيه . أما اسمه عند اليونان فهو أثينودوروس والتاريخ لا يذكر لنا قبل الآن ولداً بهذا الاسم لاوديناطوس

(٢٤) ولما كانت سنة ٢٧١ استبد وبعلاطوس بالملك وأسقط اسم اوريليان من تقود مصر وأخذ لقب اغسطوس فكان ذلك سبباً لسقوطه وموته وبه انقرض نسل زينوبيا بالشرق

(٢٥) وعادت مصر لحكم اوريليان لكنها لما كانت قد اعتادت على العصيان لم ترضخ لسلطته طويلاً لا سيما وأن اليونان كانوا قد قتلوا وذلوا والمصريين والعرب قد زادوا وعزّوا بانتصار زينوبيا فأنفوا أن يحكمهم غريب عنهم فباعوا رجلاً من سلفكيه يُسمى فرموس على الأمانة وهو اتكالاً على قوم كان قد مضى عليهم ستائة سنة بالعبودية والهوان طمع أن ينال بهم سلطنة الاسكندرية

(٢٦) وكان فرموس رجلاً قوي الجأش هماً عظيم الثروة من وراء تجارة واسعة مع الهند وصناعة الورق ، وداره في سلفكيه من أجل دور ذاك الزمان مزينة كواثمها بالزجاج الملون المحكم التركيب بالحمر إلا أنه كان فظاً جافياً غليظاً وكانت قوته بعربان الصعيد والبدو أنصار زينوبيا فجعل عاصمته قبطوس ولما جاء أوريليان يحاربه خاض

المعمعة مع رجاله لكنه أخذ أسيراً وتفرقت جنوده فأمر اوريليان بتعذيبه وقتله ، ولأن روما كانت بوجل لثلاث يقاتلها خراج مصر من الحبوب بعث لها اوريليان بشار انتصاره بسرعة انطمان

(٢٧) ويظهر من تاريخ الرومان بأن اوريليان قتل قائداً في مصر يسمى دوميتيانوس أما وجود البعض من نقود الاسكندرية باسم دوميتيانوس للسنة الثالثة من ملكه فلا علم لنا من هو إلا أن يكون رجلاً آخر بهذا الاسم لا سيما وان كتابة هذه النقود هي بالحرف اللاتيني الذي لم يكن دارجاً بالاسكندرية بذاك الزمان ، والنقود التي باسم اوريليان ترى غير منقطعة سنة بعد سنة من موت قلوديوس لسنة ٢٧٥ وكلها من النحاس تبرهن عن افتقار البلاد التي كانت روما لا تنفك عن استنزاف ثروتها

(٢٨) وأقام اوريليان القائد پروبوس حاكماً على مصر وكان رجلاً حازماً هابه الافريقيون بالقيروان والعرب والسوريون بتدمر وبأوان السلم كان يشغل جنوده بترميم الترع والقناطر والمعابد . وفي مدة ولايته زاد اوريليان نصف السدس بخراج الحبوب عدا زاده بخراج الزجاج والقرطاس والكستان حتى انه اضطر لزيادة المراكب لنقلها الى روما

(٢٩) أما المسيحيون فكانوا بهذا الزمان بأتم الراحة والطمأن حتى ان البطريرك نيروتجاسر على بناء كنيسة بالاسكندرية باسم القديسة

مريم وربما انها كانت أول كنيسة رسمية بُنيت في مصر وكانت الصلوة فيها كما في سائر البلاد لذلك الحين باللغة اليونانية إلى أن افترق القبط عن اليونان وصاروا يصلون بلغتهم (٣٠) ومات اوريليان ولم يوص فقامت أرملته بإدارة المملكة بصورة وقية لأن القانون الروماني عسكري لا يسمح بالملك للنساء. أما الاسكندرية فانها ضربت حينئذ تقودها باسم الامبراطورة سويرينا

بروبوس سنة ٢٧٦ م الى ٢٨٣

(٣١) وفي سنة ٢٧٦ لما انتخبت روما تاسيطوس امبراطوراً ضربت الاسكندرية التقود باسمه على ستة أشهر وكان هذا حد ذكره بها (٣٢) ومات تاسيطوس وخلفه أخوه فلوريان وبايعته روما، أما مصر فانها كانت تريد حاكمها بروبوس امبراطوراً وهو لا يرضى إلى أن وهو يستعرض الجند في أحد الأيام خطف بعضهم جبة حمراء عن صنم هناك ورمائها على ظهر بروبوس فخيأه الجند بالامبراطورية ثم بثوا دعوته في اسيا الصغرى وسورية وإيطاليا فبايعته جنود هذه البلاد أيضاً وقتل فلوريان وبعد قليل مشى بروبوس بجيشه لبلاد الغال وجرمانيا لتوطيد السلم (٣٣) لكنه بعد سنة أو سنتين إذ بلغه تعدي العربان على الصعيد واحتلالهم البطلمية عاصمة أرض ثيبه عاد إلى مصر فردّهم ونكّل بهم

وبإيابه إلى روما دخلها بصفة غازٍ برهائًا على أن انتصاره كان أمرًا خطيرًا

(٣٤) وكان اوريليان قد أقام أيضًا القائد ساطورينوس محافظًا على الحدود الشرقية محرمًا عليه دخول أرض مصر لكنّ بروبوس لانهما كه بأطراف المملكة دعاه لولاية مصر وكان رجلًا شريفًا للغاية شهيرًا بخدمته للمملكة في اسبانيا والغال وافريقية فدخل الاسكندرية بجيش كبير فطاش اليونان من رؤية موكه وسلّموا عليه امبراطورًا باسم اغسطوس أما هو فأنكر ذلك، ولقطع الاسباب رحل عنهم بجنوده إلى فلسطين لكن إذ بلغه انتشار الخبر ووقوعه تحت الشبهة خاف أن يُغدر به فأعلن نفسه امبراطورًا ثم بعد قليل طرقتة جنود بروبوس فوق اسيرا ومات خنقًا خلافًا لقصد بروبوس ورغبته

(٣٥) ولما تُوفي بروبوس سنة ٢٨٣ قام بالسلطة قاروس وإبناه نوميرانوس وقارينوس وأثرهم الوحيد في مصر كان النقود المضروبة باسمائهم بالاسكندرية وبعض نقود هذا الزمان كان أيضًا باسم فيلق تراجان الثاني المصري الذي كان مقيمًا على الدوام بالاسكندرية وكانت له الرخصة بضرب ما يلزمه من النقود لحاجته فكان يضربها صحيحة بينما نقود البلاد كانت كلها مغشوشة

عصيان وفوضى سنة ٢٨٣ م الى سنة ٢٨٥

ديوقليتيان سنة ٢٨٥ م الى ٣٠٥

(٣٦) ثم آل الحكم إلى ديوقليتيان سنة ٢٨٥ لكن سنة ٢٨٨ خلع الصعيد طاعته وبايع أخلّوس امبراطوراً شرقياً . فبعث ديوقليتيان القائد غاليريوس ضده . ولما لم يقدر على تطويع العصاة حضر ديوقليتيان بنفسه سنة ٢٩٢ فدخلهم ولحقهم إلى قبطوس وبوسيريس فهدمهما

(٣٧) ولما بلغ حدود مصر الجنوبية رأى انه من العبث دوام التشبث بالسودان ، والخراج منها لا يفي بنفقة جبايته ، فصالح البلاد التي بين الشلال الأول والثاني تاركاً لهم ما كان من أرض النوبة على سبعين ميلاً من اسوان ومتعهداً بامدادهم بمبلغ سنوي ماداموا محافظين مع جيرانهم عربان الصعيد على السلم . ثم أحكم تحصين حدوده الجديدة بالفيلة . ولم يزل أثر سوره بطرف الحقول من حافة النيل الشرقية شمالي الشلال ظاهراً للآن

(٣٨) لكن لسبب ضعف العنصر اليوناني بالبلاد بذلك الزمان مع ازدياد حمية المصريين وكرهم للدولة لم تلبث الاسكندرية إلا قليلاً حتى هي أيضاً بايعت أخلّوس فاضطر ديوقليتيان أن يعود ثانية

لمصر وامتنعت عنه الاسكندرية فحاصرها ثمانية أشهر ثم دخلها وقبض على الخلوس وقتله واحترق قسم كبير من المدينة وبدخوله للاسكندرية سكب فيه فرسه فتفأل من ذلك وظن أنه يفدي نفسه باستعمال الرحمة فخرم على جنوده القتل والسلب وأعطى الناس الأمان فشكروه على إحسانه ثم نصبوا له ولفرسه تمثالاً من القلتر على العمود المعروف بعمود يومي بساحة معبد سيرابيس وكتبوا على قاعدته ما تقرأه الآن « إلى الامبراطور المعظم راحم الاسكندرية ديوقليتيان المنصور » أما التمثال فلم يبق له أثر الآن

(٣٩) ولما كان تمادي العصيان قد طال ورأى ديوقليتيان بأن نفقات الحرب لم تعجز المصريين ظن بأن لهم سرّاً بتحويل المعادن الخسيسة إلى ذهب وفضة فأمر بجمع كتب السحر والكيمياء التي عندهم وأحرقها . إنما حقيقة الأمر هي أن اليأس وحده كان السرفي هذا الجلد الطويل وهو الذي أدنى أخيراً إلى خراب البلاد التام من توقف التجارة بالنيل وتعطل الثرع والزراعة والصناعة لحدّ لم تكن مصر تعرفه من زمان احتلال الفرس لاسيما وإنها كانت بالسنين الستين الأخيرة قد عصت على روما ست مرار وقلّ فيها العنصر اليوناني واعتزل ألوف عديدة من القبط رجال ونساء بالاديرة من جرّاء عدم الامن وضيق المعيشة

(٤٠) فلتقوية العنصر اليوناني رأى ديوقليتيان أن يزيد بالاحسان

لفقرائهم من خراج الحبوب فأدت النتيجة بخلاف القصد لأنهم
أخلدوا حينئذٍ إلى البطالة وزادوا ثمرًا على اليهود والمصريين
وتسافهوا على الحكام وكانوا لأدنى سبب يتجهرون ويثيرون
الشغب والفتنة بالمدينة مشهرين سلاحهم بوجوه اليهود والمصريين
الذين لم يكن جائز لهم حمل السلاح ولا اقتناؤه

(٤١) ثم انه النى رخصة ضرب النقود المصرية وأبدلها بالنقود الرومانية
فانقضى بذلك عهد تلك النقود التي كانت بنفسها كتابًا مفتوحًا
للتاريخ وقد جمعها العالم سويغا بكتابه المسمى « نومي اجبي
امبراطوري » أي أسماء امبراطورات مصر

(٤٢) ومن أشنع حوادث هذا الزمان كان اضطهاد ديوقليتيان
للمسيحيين، فانه سنة ٣٠٤ حرّم على الناس اتباع هذا الدين بسائر
المملكة وهَدَمَ الكنائس وأمر بحرق كتبها ونفي أو قتل من تمسك
بهذا الدين، فكثيرون من المسيحيين هاجروا لسورية ولكن العدد
الأكبر كان يستحيل عليه أن يهاجر أو أن يقاوم فاستشهد منهم
كثيرون إلا أن يكون المؤرخون الكنائسيون قد بالغوا بما نقلوه
عن عدد هؤلاء الشهداء

(٤٣) ولكن لا يمكن إلاّ تصديق المؤرخ عوزيوس الذي يخبرنا عما
رآه بعينه من الاعدام بيوم واحد قتلاً وحرقاً حتى كَلَّ الجلادون
وذابت قلوب القضاة من الشفقة على هؤلاء المساكين وبينهم كثيرون

من أهل العلم والشرف والمال كبطرس أسقف الاسكندرية وكهنسته
فوستوس ودايوس وعمونيوس والعالم فيلياس أسقف طمويس
وحزقيوس جامع الفاهوس الرومي وناقل الكتاب السبعيني
والاسقفين باخوميوس وتيودوروس ووكيل الخراج فيلوروموس
الخطير المنصب النقي العرض

(٤٤) اما بعض المستشهدين كميديسيوس الذي شتم الفاضي ورد
نصيحته بالجفاء واطعمه على وجهه ففعله هذا بمجد ذاته يستوجب
القتل في مثل هذه الظروف

(٤٥) وكان المواجهون بتنفيذ هذا الامر السلطاني الشنيع قوايانوس حاكم
مقاطعة ثيبه وهييروقليس حاكم الاسكندرية مؤلف الكتاب المسيحي
فيلا ليتيس أي محب الحقيقة نعرفه فقط من رد عوزيوس شايه
وفيه يكذب الحواريين ويزعم بأن المعجزات المنقولة عن ابولونيوس
هي أصدق خبراً وأعظم خطراً من المعزوة ليسوع الناصري

(٤٦) فكان هذا الاضطهاد أشد ما عرفه المسيحيون من الرومان ومع
ذلك فأننا نراهم سنة ٣٠٥ مهتمين بانتخاب اسقف جديد الاسكندرية
وينهم الكاهن اريوس الذي اشتهر فيما بعد اشتهاراً سيئاً بالتاريخ
الكنائسي

(٤٧) ولما في سنة ٣٠٥ تنازل ديوقليتيان عن كرسي روما ، استولى

غاليريوس على مصر وباقي مملكة المشرق واستولى قسطنطين
خلوروس على مملكة اروبافاليريوس ترفق نوعاً ما بالمسيحيين
اولاً

• تقسيم سنة ٣٠٥ م الى ٣١٢

(٤٨) ويعرف غاليريوس بتقسيم ثم انه أعاد الاضطهاد على المسيحيين
واتخذ الجواسيس ضدهم فكثرت الوشايات والسعايات واشتبه الجار
بالجار وصارت الناس تطلب من الحكام ابعاد كنائس المسيحيين
لوراء اسوار المدن . واذا صار علماء الهيئة يؤرخون السنين من عهد
ديوقليتيان سمي المسيحيون ذاك العصر عصر الشهداء

(٤٩) واذا كان لا بد من وجود كثيرين من المسيحيين ممن كتبوا
دينهم وقت الاضطهاد فانهم عند انكشاف الازمة أرادوا الرجوع
لكنائسهم فحصل ضدهم ما حصل في عهد ديققيوس وكان من
أشد أخصامهم أحد أساقفة الصعيد المسمى ملاتيوس لكن باقي
الاساقفة والجمهور كانوا على قبول توبتهم وأما أصر على رأيه كقره
وطردوه وحزبه من الكنيسة الجامعة

(٥٠) لكنه لشدة رفضه ظل يترب مسيحياً يجرحه فسمع بأن اريوس
كاهن كنيسة البقاله يعترض على القول بالوهية يسوع فشكاه
للاسقف واضطر هذا الى مرافقته فهرب منه الى فلسطين وظل

هناك الى أن دعاه مجمع نيقيا (وهي الآن ازنيق) بالعهد التالي لتل
هذه المرافعة

(٥١) وبهذا الزمان وما كان فيه من انحطاط اليونان مادياً وأدبياً
واضطراب البلاد المتوالي تناعت عبادة مترا ، إله الشمس الفارسي ،
بالاسكندرية وكان مثاله كشاب ينحر عجلاً وبجانبه كلب وحية
وكان معبده المسمى مترايوم بصحرَاء البلد بكان قذر . وشاع ايضاً
مذهب ماني الفارسي بواسطة تلامذته پاپوس وهرمز وهو ان إله
الخير من نور وإله الشر من ظلام

(٥٢) ولهجت الناس كثيراً بمذهب هيرافاس القبطي بأن الاجسام
لا تُبعث بل الارواح فقط فخير المسيحيين الذين كانوا يستندون
ببقيتهم بالبعث على يقين المصريين وتحنيطهم موتاهم من النبي سنة

(٥٣) وبهذا الزمان كان تعويل المسيحيين المصريين على النقل
السبعيني المصحح من حزقيوس الاسقف المستشهد بالعهد السالف
ولشهرة الاسكندرية العالمية كانت الكنائس البعيدة تطلب هذا
النقل منها ما عدا القسطنطينية وانطاكية فان اعتمادهما كان على نقل
لوقيانوس وفلسطين ايضاً التي كانت تعتمد على نقل اوريجين القديم
ولكن فيما بعد صار نقل حزقيوس الاكثر استعمالاً الا انه لتفنن
النساخ فيه وتعليقهم عليه الحواشي صار التابعون يعتبرونها كالأصل

كما فعل قبلهم اليهود بنقل التوراة فأنت الترجمة اللاتينية منه اكبر
من اصلها اليوناني

(٥٤) وهذا الزمان ايضاً ترجم القبط النص السبعيني للاثم المنفية
والصعيدية والبشمورية حرفاً بحرف من اليوناني لا بل ان كل كلمة
من خمس منه كانت يونانية

لبقينوس سنة ٣١٣ م الى ٣٢٢

(٥٥) ولما مات مقسيم بطرسوس على يد لبتينوس خلفه هذا على
مملكة الشرق ودخلت اربا في حكم قسطنطين بن قسطنطيوس
وبالعشر السنين الاولى كان قسطنطين يحاول الغدر بلبقينوس الى
أن ضاق صدره هذا منه فزحف ضده الى تراسيا بمائة وخمسين ألفاً
من المشاة وخمسة عشر ألفاً من الفرسان وثلاثمائة وخمسين مركباً
لكنه اضطرّ فيما بعد الى المهادنة وطلب الصلح فلم يرض منه
قسطنطين الاّ التسليم ضامنّاً له الحيوة فسلم له على هذا الشرط . ثم
ان قسطنطين غدر به واماته شتقاً فعادت المملكة كلها بيد
امبراطور واحد

الفصل السابع

سنة ٣٢٣ م الى ٣٧٨

قسطنطين . ابنه قسطنطيوس . يوليان . يوليان . والنس

قسطنطين سنة ٣٢٣ م الى ٣٣٧

(١) يمتاز حكم هذا الامبراطور عن غيره بالانقلاب العظيم الذي حصل فيه بدين المملكة وهيئتها عند تنصره سنة ٣٢٣ ، فان اضطهاد المسيحيين قد توقف بال الحال واعفيت كهنتهم من كل التكاليف الملكية والعسكرية . أما تنصره فغير معلوم ان كان عن اقتناع أم سياسة ، انما المعلوم هو ان المسيحية لم تصل لكرسي الملك حتى كانت دين الاكابر والاغنياء فيه وبعد أن رأيناها تنمو وتعلو تحت الالهانة والجور من الحكام سنهاها الآن وسيلةً للقرب منهم والتزلف لهم فان كثيرين اعتنقوا الدين الجديد عند تنصر الملك ولما يدخل الايمان في قلوبهم واصبحت الاغلبية المصرية منهم تقدر أن تصف الاقلية اليونانية من هذا الدين بالكفر كما سبق للفئة اليونانية عينها مع الفئة اليهودية المنتصرة قبلها

- (٢) أما تنصر اليونان بالاسكندرية فانه كان أولاً من نوع الفلسفة وليس عن اقتناع بدور رباني، كما انهم بدخولهم مصر مع الاسكندر تركوا مذهبهم ومعابدهم في نوقراطيس واتبعوا اديان سيراييس وميترا، ثم صاروا يضحكون منها الى أن شاعت بينهم فلسفة افلاطون التي هيأت أفكارهم للمسيحية. وقبل تنصر قسطنطين كانت المسيحية قد عمت كل بلاد مصر، وترتيب كنائسها كان قد تم تقريباً على ما نراه الآن. فلزمان هيراقلاس وديونيسيوس كانت الكهنة تنتخب الاساقفة والشمامسة تنتخب الكهنة فديونيسيوس كان يصدر بلاغاته الاسقفية باسمه واسماء كهنة أبرشيته لكن بعد ذلك تغير هذا الحال الى الاستبداد ولما التقى قسطنطين جلابه على رؤساء الكنيسة كثير منهم زادوا على امتيازهم الكبرياء والبخل وحب الجاه
- (٣) ✓ فلعبت بهم الاهواء النفسانية وابتدأت الانقسامات الكنائسية وانفصمت عرى ذلك الاتحاد الذي كان الاضطهاد يربطهم فيه . فان قسطنطين كان قد آمن اما بالوهية يسوع واما برسالته ولكنه اذ صار يسأل اساقفة الاسكندرية عن مذهبهم بصفة ملك الحب والرحمة وجدهم يتشاحنون ويتلاعنون فيما بينهم على آرائهم فيه بعيدين عن مباديء ذلك الشارع الوديع الحنون
- (٤) ومع وجود مصر زماناً طويلاً برق العبودية لليونان والرومان فانها كانت قدوتهم بالدين اولاً وآخرأ وفيها نشأ الانقسام بين

فئة تذهب الى أن يسوع الابن هو من جوهر واحد مع الآب .
 وفئة تذهب الى انه من جوهر يماثلله بينما هذا البحث لم يكن قد
 خطر بفكر العلماء الاولين ولا بفكر اليهود المنتصرين اولا المؤمنين
 بأنه المسيح المنتظر . وبينما اليونان يعتقدون به كالحكمة الربانية ،
 والكلمة على مذهب افلاطون . والمصريون الاولون يعدونه من
 احدى الآيات الربانية فان اقليمس رومانوس صديق الحوارى
 بولس يدعوه الكاهن الاعظم والربان لا سوى . وحينما دعاه
 الوثيون المنتصرون إلهًا متجسدًا انكر ذلك عليهم اليهود
 المنتصرون ، وديونيسيوس أسقف الاسكندرية يدعوه بكر الخاتمة
 واوريجين لا يرى أن يُصَلَّى له . فالاسكندرية حولت الافكار إلى
 الجدال بالصفات والتجبر بالآراء والمنازعات إلى حد الطعن والاضطهاد
 شنيعة عرفناها من اليهود الذين صلبوا المسيح فكانه لم يأتِ

(٥) فلما بلغ الامبراطور وجود هذه الحال ولا سيما ما كان بين أسقف

الاسكندرية اسكندر والكاهن اريوس ساء ذلك وطلب من
 الاسقف أن يكف عن مناظرة هذا الكاهن حبًا بالسلامة لكن
 لما بلغ الخبر كهنة الاسكندرية هاجوا وماجوا خوفًا من أن يقوى
 حزب اريوس بذلك وأصروا على طلب مرافقته فاضطر الامبراطور
 لحشر أساقفة المملكة ليحكموا على الخلاف فاجتمع منهم في نيقيا

سنة ٣٢٥ مائتان وخمسون استقفاً وعدد كبير من كهنة المشرق
وأسقف أم اثنان من الافرنج

(٦) وهناك احتدم الجدل وكاد يأول إلى المضاربة والقتال لولا ان رهبة
الامبراطور وحلمه يضعان حداً للخصام . وامتاز حينئذ الشماس
اثناسيوس بجرارة مقاومته لآريوس ثم عاد المجلس للوقار وجرى
أخذ التصويت لآراء الخصمين فنجم عن تضليل اريوس والحكم
بأن يسوع الابن هو إله من جوهر واحد مع الأب وسموا هذا
المذهب « الهوموسياني » وقرروا قانون الايمان المعروف الآن
بالنيقي وعينوا وقوع الفصح الذي تقيمه اليهود ليلة تمام القمر
الربيعي ، بأن جعلوه يقام بالأحد الذي يتلو تمام هذا القمر ولعنوا
اليهود وانفض المجلس مكتفياً بنفي اريوس غير مدرئ ما أثاره
بصدور المصريين من الخيالء بانتصار حزبهم مما جعلهم فيما بعد
شوكة لمجنب الامبراطور ناصرهم على اليونان أصدقاء دولته
بالاسكندرية

(٧) وهذا الزمان كان أسقف الاسكندرية هو الذي يعين لاساقفة
البلاد حلول الفصح فيجري بلاغه مجرى الامر لمسيحي المسكونة
لأن روما كانت قد فقدت كرسي الملك واورشليم سقطت من
عزها والقسطنطينية لم تبني بعد

(٨) ثم بعد زمان قدّم أريوس استرحاماً للامبراطور بالعفو عنه مبرهنًا

بأنه لم يَخذ عن قانون ايمان الرسل ففى الامبراطور عنه وكتب
 لاسقف الاسكندرية بلياقة ردّه لكنيستته اكنّ الاسقف كان
 إذ ذاك عين ذلك الشماس اثناسيوس خصم أريوس الالاد بمجمع
 نيقيا فأبى الامتثال اطلب الامبراطور مدّعياً بأن قبول هذا الكاهن
 عضواً بالكنيسة غير جائز ديناً ، فرفض الامبراطور اعتراضه وطلبه
 للوقوف بين يديه ولما وجده مصرّاً على رأيه أبعده الى صور وهناك
 أقام مجمّعاً من الاساقفة سنة ٣٣٥ لمرافعته فحكموا بفساد رأيه واعادة
 أريوس لوظيفته فظلّ مُبعداً مدّة هذا العهد كلوا

(٩) ولكنّ أقل ما يقال عن تسنّعة الاستبداد من الرؤساء المسيحيين
 هو أنه بازدياد سلطتهم دخل الكنيسة رجال غير لاتقين بها اتخذوها
 وسيلة للحصول على غايات زمنية وأغراض ذاتية بعيدة عن التقوى
 والرأفة المسيحية

(١٠) وكان أولاً الاسم العام للمسيحيين « النصارى » وذلك لان
 أولهم كانوا من اليهود قوم الناصري يسوع ، ثم لما شاعت المسيحية
 بين المصريين وذهبوا مذاهبهم فيها كمرّوا أولئك اليهود القائلين
 بأن يسوع هو المسيح والنبي الاعظم المنتظر ، فاما مجمع نيقيا لعن
 اليهود كره الجمهور الانتساب للنصارى وانحصر هذا الاسم بعد زمان
 قسطنطين بيهود الحبشة واليمن المنتصرين

(١١) ومن مآثر هذا الزمان كان بناء القسطنطينية سنة ٣٢٨ وانتقال

كرسي الملك اليها فيانت روما حينئذ بأعين الناس وقلة
الاسكندرية خوفاً من تحول رياستها الدينية لعاصمة المملكة
واحتراف علماءها بكرسي الملك لا سيما وانها اضعف العنصر اليوناني
فيها كانت قد أمست تدعى من زهان ديوقليتيان المدينة المصرية
بعد ان كانت تدعى المدينة اليونانية على حدود مصر وفعلاً هكذا
جرى فاننا نرى عند بناء القسطنطينية ان جاذب اليونان لحرّ مصر
قد خفّ وانقطعت مادة هذا النسل فيها

(١٢) وقتل قسطنطين احدى مسلات مصر لزينة عاصمته الجديدة
وجلب مسألة أخرى من هايوبوليس للاسكندرية لينقلها للعاصمة
ايضاً لكنه توفي قبل أن يفعل ونقلها ابنه فيما بعد الى روما . وأخذ
قسطنطين مقياس النيل ايضاً من مستجد سيرابيس ووضعه باحدى
كنائس العاصمة ليُطل احتفال المصريين الديني بفيضان النيل فتفاءل
كينة مصر الوثنيون من عمله لكن اذ تمّ الوفاء بتلك السنة صار
المسيحيون يحتفلون به كعيد كنائسي . وأحضر الامبراطور من
الاسكندرية خمسين نسخة من الانجيل لاستعمال كنائس القسطنطينية
محرورة على الرق من تصحيح عوزيبوس أسقف القيصريّة

(١٣) ولم يبق حينئذ العلماء الوثنيين من عضد ، قتل الاقدام على
مدارسهم وصار علييوس وصديقه يامبايخوس مدرسي فافسفة
عمونيوس وپلوتينوس يتجولان بين الاسكندرية وپرغاموس وروما

وكل ما وصل إلينا من تأليف أولهما هو كتابه بمباديء الانعام مرتبة على خمسة عشر رسداً وعلاماتها على سطرين كأن سطرًا منها للصوت والآخر للعود يقال بأنها علامات يثاغورية . وأما ثانيهما فيوجد له للآن عدة تأليف مذهبه فيها يشبه مذهب أفلاطون

(١٤) وأقام الاستاذ سوطاتر بتدريس الفلسفة الافلاطونية بالاسكندرية وكان يدعي بأنه أفلاطون الثاني ، ولمدة من الزمان كان قسطنطين يودّه ويكرمه ثم أنكر عليه مذهبه وقتله وعلى قول المؤرخين الوثنيين انه تقم عليه رفضه ان يُبريء ذمته من قتله ابنه

قسطنطيوس سنة ٣٣٨ م الي سنة ٣٦١

(١٥) ولما مات قسطنطين خلفه بالملك أولاده الثلاثة مقسمين المملكة بينهم فجلس قسطنطين الثاني على كرسي القسطنطينية وكونستان أصغرهم على كرسي روما وقسطنطيوس على كرسي انطاكية كعاصمة المشرق ، فزاد بذلك انحطاط مقام الاسكندرية السياسي . ولما أصاحت أنطاكية سفر التكوين بترك عشر سنين منه تبعها بذلك الاسكندرية لكنها فيما بقي ظلت مدة حياة هذا الامبراطور تدعي الاسبقية بأمر الدين

(١٦) وكان قسطنطيوس على مذهب اريوس بينما أخواه كانوا على مذهب اثناسيوس فتجاسر هذا تحت حمايتهما على الرجوع للاسكندرية

لكن لما بعد قليل نشبت الحرب بين هذين الاخوين وقتل قسطنطين الثاني تنتط قسطنطيوس لدفع مداخله كونستان في أمور مملكته وعزل اثناسيوس من كرسيه وأقام مجمعا من الاساقفة بانطاكية لينتخب أسقفًا عوضه فانتخبوا أولاً عوزيبوس من حمص لكنه استعفى مشعراً بأن المصريين لا يرضون أن يكون عليهم أسقفًا أريوسياً ولم يكن من رأيه اكراههم على ذلك فانتخب الجمع حينئذ أسقفًا على الاسكندرية غريغوريوس الجسور على أي مقاومة تصدر ضده من أهلها

(١٧) ثم انه قرّر الغاء « إله من إله جوهر واحد مع الاب » وابداله « بىكر المخلوقات وصورة جوهر الاب » وبعد بضع سنين التأم هناك مجمع آخر وسنّ قانوناً أقرب الى مذهب اثناسيوس لكنه لانكاره أيضاً وحدة الجوهر مع الاب رفضه المصريون واللاتين وصار كل فريق يضل الآخر ويلعنه

(١٨) ولم يحسر غريغوريوس على القدوم لكرسيه حتى أمر الامبراطور القائد سيرانوس بمخفاته فأدخله الاسكندرية ليلاً وبالغد أتى به للكنيسة محفوفاً بالجند فوجدوا اثناسيوس قد سبقهم اليها مع أتباعه وأغلق أبوابها ، لكن لما تهددهم القائد خرجوا من باب السرّ حقين وتبع ذلك اضطراب بالمدينة وشغب وانقطع وارد الخارج عن البلد اياماً فخاف اثناسيوس من المسؤولية بذلك وهرب الى روما أما

حزبه فلكونه اكثر من الحزب الاريموسي فظل هائجاً حتى انه احرق الكنيسة مؤثراً ذلك على تركها بيد الاريموسيين ثم انه قوي عليهم الى أن امكنه طردهم من كل كنائس وأديرة مصر

(١) وبعد سبع سنين من هذه الحال مات غريغوريوس و برجاً اسقف روما وكونستان أعاد قسطنطينوس اثناسيوس اكرسيه مشروطاً عليه عدم التحرش بالاريموسيين

(٢) لكنه برجوعه لابرشيته أظهر الاستبداد . فقسم من حزبه من القبط لم ترضهم معاملته لمواطنيهم الاريموسيين فانتفضوا عليه وانفصلوا عن كنيسته منضمين الى كنيسة الاسقف ملاتيوس

(٣) وبهذا الزمان بدأ الحكم يشعرون بالانقلاب الناتج من انتشار المسيحية أولاً ثم من دخول الامبراطور في دينها واعطائه للاساقفة رتبة الامراء

(٢١) ثم مات كونستان فعاد قسطنطينوس لعزل اثناسيوس سنة ٣٥٤ لكنه لاقى بذلك تبعاً جمّاً الى أن في سنة ٣٥٦ اختفى اثناسيوس وظلّ مستتراً عن الحاكم سيرانوس في غرفة صبية اجارته لآخر هذا العهد

(٢٢) فله اعجز سيرانوس أمره أرسل الامبراطور القائد سبستيانوس حاكماً على مصر ومأموراً بالقبض على اثناسيوس حياً أو ميتاً . فرفع

حينئذ حزب أريوس قرنه وانتخب جرجس من قبادوسيا أستقفاً
على الاسكندرية

(٢٤) وكان جرجس رجلاً عالمًا هماً لكنة أقل حكمة وسياسية من خصمه
وكان أبوه خياطاً من ايفانيا في أسيا الصغرى فلما رأى نفسه بهذا
المقام الخطير تجبر وترنح بسلطته فاضطهد أخصامه بكل أنواع العذاب
والقتل والابعاد حتى كاد أن يحاكي عمل ديوقليتيان بالمسيحيين
فكره الناس اسم الامبراطور ناصره وحط من شأن الاسم المسيحي
بين أعداء هذا الدين

(٢٥) وبهذا الزمان كانت البلاد التي على الطرف الجنوبي من البحر
الاحمر قد ابتدأت أن تُعرف أكثر من قبل بالاسكندرية فان الرحالة
ميروبيوس وصل اليها في عهد قسطنطين ودخل اخضع عاصمة
الحبشة وفرومنطيطوس رفيقه سعى بإرشاد أهلها للمسيحية والمتاجرة
مع مصر وعاد اليها أستقفاً بأمر اثناسيوس وقسطنطوس بعده أرسل
بعثاً مع الراهب تيوفيلوس لاهل حمير الصابئين نسل اولئك اليهود
المستوطنين البلاد من عهد سليمان فبنى لهم الكنائس ثم انتقل
للحبشة عوضاً عن فرومنطيطوس الذي عزله جرجس الاستقف الاربوسي
فأحكم فيها ربط عرى الوداد مع شعبها اليهودي الاصل أيضاً الذي
كانت العربان تحجز بينه وبين مصر. ووجد هناك بجنوب العاصمة
مستعمرة سورية يُقال بأن الاسكندر أسكنها تلك البقعة. وكانت

لغة تلك البلاد كلها عربية غير لغة السودان وبها تُرجم لهم
الانجيل من اليوناني لكنّ انتشار الدين الجديد بينهم لم يتمّ لقرنين
بعد هذا الزمان لسبب الموانع التي كانت تطرأ من وقت لآخر
فتقطع مواصلاتهم مع الاسكندرية

(٢٦) وها انا نرى كلما تقدمنا بتاريخ المسيحية في مصر كلما بعدنا عن
أزمة العلم ودخلنا غياهب الجهل الممتد منها الى أوروبا فان الرهبانية
التي نشأت من نساك انطونيوس وتولي المصريين في عهد فيليبوس
قيصر على حافة بحيرة لوط لم تكن الا تقليد رهبانية الوثنيين واليهود
من قبل ، والمعجزات المنسوبة لبعض الرهبان المسيحيين من بين
الالوف من رجال ونساء في عهد قسطنطين وعهد اولاده ليسها جزءا
مما تقل عن رهبان الوثنيين قبلهم

(٢٧) لا بل ان هؤلاء الرهبان المسيحيين تقلدوا عادة رهبان الوثنيين
السالفين بحلق رؤوسهم الا دائرة في وسطها وحلق لحاهم وشواربهم
فحرم عليهم ذلك اثناسيوس وحرم أيضاً عليهم استعمال الرق
والافراط بالصوم للتفاخر به ومكالملة النساء والاعتسال بالحمامات
العمومية وحفظ السبت . وبعد هذا الزمان بسنين قليلة صار وضع
قانون الرهبة المطول المعمول بأكثره للآن

(٢٨) ومن الاخبار عن بعض هؤلاء الرهبان خبر أحدهم عمون الذي
يقال بأنه كان رجلاً ذا نعمة اقترن بصبية حسنة لكنه باليوم

والساعة أغراها بالتزام العفة وهجران العالم ناذراً بالاً يغتسل طول حياته ولا يغير ثوبه كي لا يرى جسده عريانا . وعلى قول مؤرخه الكنائسي انه كان اذا اضطر أن يقطع ساقية تأتيه الملائكة فتحمله كيلا يبال وفاء بندره

(٢٩) واشتهر بعده الناسك انطونيوس المقيم في ذلك الوقت بالقرب من هيراقليو بوامس الزاعم بأن روح عمون آتته وعلمته الفرائض الدينية فكان سكنه بين القبور حيث أتاه الشيطان بأشكال شتى منها انه أتاه بشكل اسود وغور وذئاب وحيات وعقارب وزناير كثيرة واذا انتصب ليصلي هربت من وجهه تورا . ومنها انه أتاه بشكل زائر لكنه اذ سمع اسم يسوع ولّى هاربا . ويزعمون انه كان يشفي المرضى ويخرج الشياطين بعلامة الصليب ويعلم بالغيب وينكر فائدة العلوم لمن اهتدى للدين ، وهكذا لما شاع ذكر فضائله ومعجزاته كتب له الامبراطور كتاباً فلم يمكنه أن يرد له الجواب بلغة اليونان لكنه قد خلف بعض وصايا لارهبان باللغة القبطية ترجمت فيما بعد لليونانية وبواسطتها عُدّ من الآباء اللاهوتيين . وبعد أن قصّى بهذا النسك عشرين سنة خرج يعظ الناس ضد المذهب الارثويسي

(٣٠) وبالاجمال فان تاريخ الكنيسة بهذه الازمنة يرى مفعماً بمثل هذه الاخبار ولكل زمان حال تُحاربها الافكار

(٣١) ومن علماء المسيحيين بهذا الزمان كان سيرايون اسقف طمس

وصديق انطونيوس ، له كتاب نفيس ضد المذهب المانوي ، انما العالم السني فكان الاعمى ديديموس رئيس المدرسة اللاهوتية الرياضي الليلخ المتبحر في الفلسفة الوثنية واليه كانت تشد رحال الطلبة من كل فجٍّ وكان مولعاً باتناسيوس وعلى مذهبه حتى قال الاريسيون بأن كل عالم لذلك الزمان كان على مذهبهم الا هذا . وله شرح على الانجيل ومقالة ضد المانوية

(٣٢) وفي كل هذه الجدالات الدينية وثنية كانت أم مسيحية ، نرى روما في غالب الأحيان تابعة لآراء مصر ، فان كونستان لما أراد أن يهدي بعض نسخ من الكتاب المقدس طلبها من اتناسيوس . وكانت روما مثل مصر تكره مذهب اليونان الاريسيوسي وهكذا لما جبروم الروماني زار مصر قال بأنه وجدها على المذهب الحقيقي الرسولي . ولكنه مع اعتراضه على مذهب اوريجين يتعهد له بالعلم والفضيلة والتقوى

(٣٣) أما علماء ذلك الزمان الوثنيون فمنهم المنطقي افتونيوس الذي اكتسب شهرة عظيمة بحكمته وفصاحته وكان يميل الى مذهب مانبي فأتاه طالب علم يدعى عطيه ، اريوسي المذهب ثم صار يجادله بالدين الى أن طلبه للجدال بحضور من الجمهور فتجادلا ولكن قبل

(١٠)

أن تظهر النتيجة اعتلَّ الاستاذ ومات فقال الارويسيون بأن
حجَّتْهم قتلته

(٣٤) وسنة ٣٤٧ تمت الاحدى عشر قرناً من بناء روما فضربت تقودها
بتلك السنة وعامها صورة الطائر الخرافي « فينكس » بصورة نسر
بريش أحمر وأصفر وهو المسمَّى عند العرب العنقاء وأهل الصين
يزعمون بأنه طائر ميمون يظهر بالبلاد عند اكتمال سعدھا

(٣٥) ومن كلام يوليوس فرميوس بالوثنيين يظهر بأنهم كانوا بذلك
الزمان قد تركوا عبادة الهائم وغيرها وحصروا عبادتهم بايزيس
وعوزيريس والنيل . وكان عيدهم الكبير يوم حزن ايزيس على
زوجها عوزيريس الذي قتله تيفون الشقي حسداً فيحلقون فيه
رؤوسهم ويطوفون بالمدينة باكين متحبين يضربون على صدورهم
ويقطعون جلودهم ثم يزعمون بأنهم يبحنون عن اشلاء القتيل التي
القاها تيفون بالنيل فترتهم اياها ايزيس بمساعدة اختها نفطيس
والقناص انويس فيدفنونها ثم يعيدون فرحين . واسم ايزيس باللغة
الكنهوتية حيز

(٣٦) وبهذا الزمان اشتهرت ايدوس^(١) الصعيد بمعبدھا للإله يسا
العجائبي فقصده الناس من مصريين واغريق يستشيرونه في

(١) هي السمأة الآن المدفونة

حظوظهم ويقدمون له الضحايا ومن جعلتهم كان أحد ولاية مصر
بارناسوس فلما بلغ الامبراطور خبره عزله ونفاه ولكنه لم يتحرش
لكهنة المعبد لما كان لهم من السلطة على عقول كثيرين من ذلك
الجمهور

(٣٧) وربما انه بهذا الزمان ايضاً ألف هيفستيون الرياضي الثبيي كتابه
الذي يزعم فيه بأن لأبراج الفلك فعلاً يؤثر بأجسام الناس وطبائعهم
فأعطى لكل بلاد برجاً لكن بدون اعتبار خط الطول كأنه قسم
الأرض كالفلك الى شرق وغرب ثم قسم كل برج الى ثلاثة منازل
كل منها عشر درجات كما هي بالمنطقة المرسومة على سقف معبد
دنديره من زمان تيريوس المؤلفة من اثني عشر برجاً فزعم بأن
صفة كل انسان تتبع صفة النجم الطالع مع الشمس يوم ولادته .
وقد رأيت بزماننا هذا كتاباً اميريكياً يسند هذا الزعم

(٣٨) أما الحكم بهذا الزمان فانه كان قد ضعف لدرجة انه اصبح
كالعدم ، لا يضر ولا ينفع ، فاستقلت فيه اكثر المدن والقرى
بالصعيد أو احتمت الصغيرة منها بالكبيرة تحت سيطرة أحد الاساقفة
حتى صارت اوامر الامبراطور نفسه لا تعمل فيها

يوليان سنة ٣٦١ م الى ٣٦٣

(٣٩) ولما مات قسطنطينوس خلفه يوليان وهو آخر امبراطور وثني فلم

يرضه تصرف المسيحيين ضد أخصائهم الوثنيين . واذ أرسل هؤلاء بعثاً للقسطنطينية يتظلمون من حاكمهم ارتميوس ومن الاسقف جرجس ، طلب الحاكم اليه وبعد محادثته في خلقيدونيا أمر بقتله فطمع الوثنيون بانتصاره لهم وثاروا ضد المسيحيين بالاسكندرية فقبضوا على الأسقف وداسوه بأرجلهم حتى الموت وقتلوا أيضاً رئيس دار السكة دراقونيتوس لانه كان قد هدم لهم معبداً بتلك الدار واهلكوا معه أحد الاعيان ديودوروس لانه كان قد نكاهم بقص نواصي الشبان المصريين المختصين به بحجة انها أثر وثني وقد كانت أصلاً عادةً عندهم مختصة بالنسل الملكي من عهد رمسيس ثم صارت بزمان البطالسة علامةً لشرف النسل ثم أصبحت عمومية . وحملوا جثث الثلاثة على الجمال الى حافة البحيرة فأحرقوها هناك وذروا رمادها بالهواء حتى لا يتركوا لها أثراً يرجع اليه المسيحيون ليننوا فوقه كنيسة

- (٤٠) واذ بلغ الامبراطور خبر جنائياتهم أنبهم عليها وتهدهم بالعقاب لا اكثر ان عادوا لمثلها ثم جعل كل اهتمامه بالاستيلاء على مكتبة الأسقف المقتول متهدداً وكيله بقطع رأسه ان فاته كتاب واحد منها
- (٤١) أما حزب اثناسيوس فلم يعبأ بقتل هؤلاء الارويسيين بينما الامبراطور مع عدم مبالاته بما حل بهم كان يكره اثناسيوس

وحزبه أشد الكره فلما عاد اثناسيوس للاسكندرية بدون اذنه غضب عليه وأمر بطرده من كل أرض مصر

(٤٢) ولم يتحرض لجمهور المسيحيين أكثر من نظره اليهم بعين الاحتقار وعدم قبولهم بالمدارس السلطانية . فسأ ذلك مسيحي الروم وسورية واسيا الصغرى . أما القبط فانهم كانوا بعد سقوط الارويسيين لا يهتمهم علم أبداً لا بل انهم أمسوا بعد قليل يكرهون العلم والعلماء ككرههم للشياطين

(٤٣) لكن حب الامبراطور للعلم وتشيده مدرسة جديدة بالاسكندرية لفن الموسيقى ووضعها لها الجوائز لم يُفد الوثنية شيئاً إذ كان الخراب قد عم وطم بلاد ثيه مقر هذا الدين من جرآ تسطي العربان عليها، والقيروان اصبحت قاعاً صنفصفاً . والذل صار مزية للقبط حتى أصبح الفلاح يُؤثر الجلد على اداء الخراج واذا تخلّص من الدفع بسكوى الفاقة هز عطفه مفتخراً بنفاذ حياته على الدولة . أما الاسكندرية فكانت لم تزل أول مدينة بالعلوم ومكتبتها ذات السبعائة الف كتاب لم تزل اعظم مكتبة بالدنيا كما ان السيرايوم حاويها كان اعظم بناية على وجه الارض بعد القيتول معبد يويتر في روما، وهو المشتري وبرجيس العرب

(٤٤) أما السيرايوم فكان معبد سيرايس على التل غربي المدينة وله مدخلان احدهما للعجلات والاخر للرجل من مائة درجة كل

درجة أعرض من التي تحتها وابعلاه رواق على اربعة أعمدة وصحن البناء مشكوف تحوطه رواقات على صفين من العمدة وفي البعض منها خزانات الكتب وعلى سطحه قبة مذهبة ورؤوس أعمدته محلاة بالصفر والذهب وجدرانه زاهية بالنقوش والصور وفي وسط ساحته عمود شاهق يستهدي به الملاحون عن بعد . وكان صنم الإلاهة القائم داخله من عهد البطالسة خشباً مكسوًّا حلةً بمجوهرات ، ولقاعته كوة يقع منها شعاع الشمس على فم الصنم في وقت معين عند الصلاة فتوهم الناس بأن هناك سرًّا إلهياً . أما رجاله فلمظنون بأنهما كانتا من الرخام . ولا يوجد الآن أثر لشيء من هذا البناء سوى عموده المسمى عمود بُيي الموازي لحامة اثار القبط الاقدمين

يوليان سنة ٣٦٣ م الى ٣٦٤

(٤٥) ولما مات يوليان خلفه يوليان وكان مسيحياً على مذهب الجميع النيقى فأعاد اثناسيوس لكرسيه بالاسكندرية لكنه ترك للار يوسيين أسقفهم لوقيوس غير متعرض لهم

(٤٦) ونعم ان الاختلاف بين المذهبين بظاهر الامر كان دينياً إلا ان اكثره كان لاسباب مرجعها النسل واللسان والوطن فكان اليونان اكثر إدعاء بالفهم يحتقرون مذهب المصريين بالطبيعة الواحدة يسوع ويقولون بالطبعيتين وكان كل فريق يكفر الآخر

الى أن بتكاثر عدد القبط المتصرين تغلبوا على اليونان ولم يمضِ
قرن بعد هذا الزمان حتى تحرروا منهم مادياً وادياً

والنس سنة ٣٦٤ م الى ٣٧٨

(٤٧) واذ توفي يويان خلفه والتينيان وهذا أعطى أخاه والنس مملكة

المشرق وكان اريوسي المذهب فرفع الاريسيون رؤوسهم
بالاسكندرية وأرادوا الاستيلاء على القصر الرواني المسمى قيصرية
ليجعلوه كنيسة فقاومهم الوثانيون سنة ثم أحرقوه. لكن الامبراطور
بعد سنة بنى للمسيحيين كنيسة بثلاث البقعة عينها

(٤٨) ثم ان اثناسيوس وجد مركزه حرجاً بالاسكندرية فرحل عنها

لكن إذ هاجت رعيته أعاده الامبراطور وأمنه فاستراح وأراح إلى
أن مات مخلفاً ذكراً أشهر من ذكر ملوك زمانه وملقياً أساس تلك
السلطة الكنائسية التي رفعت وحطت ممالك عديدة في مستقبل
الايام واهتز لها الخاققان. اما التأليف التي لنا منه فكتابها جدلية
بالمذهب واكثرها ضد الاريسيين. ولكن القانون المنسوب اليه
فالصحيح بانه ليس منه ، لا لأن الاعم الموجود فيه كثير على طبع
اثناسيوس بل لأن لا ذكر فيه لوحدة جوهر الاب والابن التي
كان أعظم تشبث اثناسيوس بها قبل كل شيء

(٤٩) وعند موته انتخبت رعيته بطرس اسقفًا عوضه فادعى بأن الكرسي الاسقفية بالمدينة هي حقه وان لوقيوس الاريسي معتصبها فغضب الامبراطور وأمر بالقبض عليه وسجنه وضبط كنائسه وأحاطها لأخصامه والنفي شريعة قسطنطين التي تعفي الرهبان من الخدمة العسكرية والتكاليف الجمهورية فرفضوا الامثال لأوامره. لكنهم إذ كانوا على مذهب الطبيعتين تجرد لوقيوس لا كراهم تنفيذاً لشريعة الملك فصيحاً له استخدام الجنود فكبس أديرتهم وقتل وهدم ما استطاع من رجالهم ومنازلهم

(٥٠) وهذا بينما كانت الرهينة قد شاعت جداً في مصر واستعرقتها الدولة وسمحت لها باستملاك العقارات والاراضي ومنحها والنس حق الارث من الرهبان الذين لم يتركوا وصية ولا وارثاً شرعياً. ومن أعظم أديرتها كان دير طنباً بالصعيد الذي رئيسه باخوميوس كان اولاً ناسكاً بكهف هناك ثم التف حول الوف من العباد ينظرون اليه كنيي، منهم الف وثلثمائة بهذا الدير وستة آلاف بغيره لباسهم الجلود وشغلهم الحرث والصلاة. وطنباً او بالحري طنبيز يعني مدينة ايزيس، والدير ربما هو المعروف الآن بالدير الابيض بالقرب من عفرو ديتوبوليس وفيه كنيسة على الهندسة اليونانية وشكل الصليب وأما ظاهره فكما عباد مصر القديمة التي أعارتها أحجارها

(٥١) وكان صنف آخر من الرهبان يرأسهم زاهد آخر يدعى عنوف يزعم بأنه ينال ما شاء بصلاته^(١) وغيرهم يرأسهم راهب أمي اسمه هوز مولع بانثاد الزبور، وآخرون يرأسهم سيرايبون كانوا أهل كدّ وتعب ومواساة للفقراء حولهم. وكان بالقرب من نظريّة (التي وجدوا بجوارها البورق فسموه نظرون) جهة مربوط خمسون صومعة بنسأكبها وأما الأشد زهداً فكانوا يتوغلون بالفتار لحد سطيس مقام أنطونبوس على حافة بحيرة مالحة جداً حيث الهواء كلهيب النار والسماء كلهل المرفوع وهناك كان يقيم الناسك موسى التائب من مآثم شبابه الذي يقال بأنه قضى ست سنين لا ينام فيها أبداً وأنه اذ طرقة ليلة ما أربعة لصوص شدهم ببعضهم بحبل ورفعهم على ظهره وسار بهم لدير بالقرب منه ليقتاصموا لأنه كان قد نذر بالألّا يوجع إنساناً بيده. وكان هناك ناسك آخر يدعى بيامين الذي اشتهر بزيت المقدس لشفاء الامراض فكانت المرضى تأتيه ليمسحها به حتى لما كان على فراش مرضه بالاستسقاء وكان ناسك آخر يدعى هالاس يحمل النار في جيبه ولا تحرقه^(٢) وكان بالصحرَاء العربية بالقرب من أنطينو بوليس إيلياس الزاهد أقام فيها سبعين سنة. وبالقرب من أخوريس كان أبيلس الحداد الزاهد الذي يقال بأن الشيطان أتاه

(١) أو بالحري بقصده وهو مذهب القول فيه كل من جدوصل وكل من قصده حصل
(٢) كانه اكتشف على المعدن اسبتوس الذي يحاك ولا يؤثر فيه النار وقد عرفه الرومان

بصورة امرأة جميلة المنظر فكوى وجهها بالحديد المحمي . وكان هناك أيضاً الناسك أبولوس متهجداً وقاهراً ذاته مدة أربعين سنة وأخبار عجائبه منقولة لنا من تيموتاوس أسقف الاسكندرية . وكان بالقرب من الاسكندرية الناسك دوريتوس وبواس ناسك فرما الذي كان يعيد صلاته ثلثمائة مرة باليوم ويعدها بحصى " يحملها لهذه الغاية وكان من أصدقاء أنطونيوس الذي أهدها جبة كان اثناسيوس أهدها له فلما كان بولس على فراش موته طلب أن يلقوا عليه تلك الجبة ويقال بأنه أول مسيحي تنسك اذ هو ابن ست عشرة في عهد واليريان وزمان الاضطهاد ومات وهو ابن مائة وثلاث عشرة سنة فشكل مدة تنسكه سبعاً وتسعين سنة

(٥٢) فصبر هؤلاء الرهبان والنساك على ضيق المعيشة بالفقر ومنازلهم شيئاً على التعبد والصلاة جعلهم محلاً للعجاب والاكرام لأن الناس لا يرون إلا ظاهر الاشياء . وإلا فان حاجة الكون الى راهب المعمعة اكثر منها الى راهب الصومعة ، لاسيما وان المصريين قد فرطوا بصفات هؤلاء العباد وغالوا بأخبار عجائبهم واكثرهم كانوا هموسيين يقولون بالطبيعة الواحدة والجوهر الواحد للآب والابن البعض منهم على مذهب اثناسيوس بالثايت والبعض يعتقدون بأن يسوع لم يصلب بل شس للناظرين ورفع الله اليه حياً ، والبعض يعتقدون بأنه صورة الخالق . وكلهم يكفرون الاريسيين واغريق

الاسكندرية القائلين بالطبيعتين ولذلك غريغوريوس النازينزي يقول بأن مصر هي محجة الدين المسيحي ومذهب التلاميذ الصحيح وبغض النظر عن أساليب كثيرين من هؤلاء الرهبان فإننا نجد بينهم من يُشهد له بالعلم حقيقة كالراهب مكاريوس المصري من دير نظريه (وهو غير مكاريوس الاسكندري) صاحب كتاب الكمال المسيحي الذي هو من خيرة الكتب بالفضل والتقوى

(٥٣) وكان كثيرون من أغنياء المسيحيين الاجانب يقصدون مصر لزيارة أديرتها، فأحدهم المسمي روفينوس من جوار المدينة الحديثة تريسته يخبرنا بأنه تجشم مشقة السفر للصعيد مع بعض رفقائه وشاهد هناك مدينة أوخيرنيقوس وفيها اثنتا عشرة كنيسة وعشرة آلاف راهب وعشرون ألف راهبة وبيتهم ثيون العالم باللغات اليونانية واللاتينية والقبطية، وقابل في ضواحي مدينة ليقوبوليس (١) الناسك يوحنا الذي كان القائد الروماني يعتبره ويستشير به بحربه ضد السودان والعربان بتلك الاصقاع. ووجد في دير طيناً ثلاثة آلاف راهب رئيسهم عمون ناذرين الصمت، وخمسمائة راهب في دير بالقرب من هرموبوليس (٢) رئيسهم أبولونيوس رجل ذكي عاقل، أتابهم بيضاء نظيفة وقلوبهم مثلاً. ويقول أيضاً بأنه وجد الوثنية لم تنزل شائعة بجوار هرموبوليس ولها تناوش مع أهل ذلك الدير. وانه زار بصحبة ثلاثة

(١) هي اسيوط الحديثة (٢) هي اشمونين الحديثة

من الرهبان عدة أديرة أخرى بقرى لا يعرف أسماءها منها فوق
صخرة على حافة النهر ومنها ضمن جدار عال وله بستان فيه أبار
وفاكهة. وواجه إيلياس الناسك بالقرب من أنطينوبوليس. وزار ديراً
بالقرب من هيراقلوبوليس. ورأى في الجهة الارسينوتية بلاداً كل
أهلها رهبان أصحاب كدّ وعمل بالحقول وتجارة مع الاسكندرية
ووجد ضواحي منف وبابل غاصّة بالرهبان. وزار الاهرام وقيل له
بأنها كانت الاهراء التي خزن فيها يوسف غلات سني الخصب.
وأخيراً زار دير جبل نظريه الذي كان أشهر أديرة مصر ثم زار بيت
المقدس وعاد راجعاً لبلاده حامداً مما شاهدته وعرفه

(٥٤) فبديهيّاً ربما أننا نستغرب وجود هذا الجهور من الرهبان بين سكان
مصر، إلا أن بالنظر لأحوال ذاك الزمان وما عرفناه من الأسباب
الجارية فيها يرتفع باب العجب ويتضح بأن تلك الرهبنة لم تكن
أولاً الردّ فعل من عظم فساد اخلاق اكثر الناس بتلك الايام
ودواء لداء لا ينفع فيه غير السمّ فاب شيطان الطيش والبطر
والسفاهة وحب الذات كان قد أخذ بكامل حواس القوم وأصبح
غايتهم الوحيدة بالدنيا، ففر البعض إلى البراري والتقفار مبتعدين عن
هذه الخساسة والدناءة. ولما أحبوا الفقر أحبهم الفقراء والفلاحون
ووزروهم على أعمال الخير والاحسان متبرعين لهم بالعشر من غلاتهم
اقتداءً بالشرعية الموسوية. وبمادي هذا التبرّع صارت الكنائس

تعتبره فرضاً وبعد إن كان يصرف كله على الفقراء والبائسين صار يصرف عليهم منه ثلثه فقط ثم أحاط به الكهنة برمته اغائدتهم الذاتية (٥٥) وكان صنف من الرهبان يُسمى ريموبوت مؤلفاً من الثلاثة والاربعة يعيشون بالمدن لكنه لاختلاطه بالجمهور لم يسلم من عدوى الفساد فسأت سيرته وسقط وتلاشى ذكره

(٥٦) وبهذا الزمان أمر والنس باستيفاء الخراج عيناً من الفلاحين وجعله كسوة جندي عن كل ثلاثين فدائاً فضايقتهم بذلك. ونرى فيه بقية من الوثنيين بسباقات الخيل في غزة فانهم كانوا يتسابقون فيها مع المسيحيين، فيعوذون خيلهم بألهتهم والمسيحيون يرشونها بالماء المصلّى عليه من كهنتهم وبالأخص من راهب يُسمى هيلاريون الذي كان لماؤه شهرة بالفوز على الاخصام^(١)

(٥٧) وقبل هذا الزمان كانت سطوة العرب تمتد شيئاً فشيئاً بالحدود الشرقية وانما تجمل القسطنطينية للعرب كان يوقفهم عن التوغل بأمالك الرومان. لكن إذ مات ملكهم قادتهم الملكة ماوية لخرق معاهدتهم

(١) ومن هذا النوع ما يحكى عن سكان الكونكو بأوربغا الشرقية وطريقه دخولهم بالاسلام ان احدهم طاب من الشيخ حرزا يعلمه على ديكه اذا قاتل ديكاً آخر فكتب له الشيخ آية من الفاتحة ولما غلب ديكه اقبل حبرانه على الشيخ يشترون منه هذا الحرز فاعترض عليهم الرجل بأن الحرز خاصته فصار الشيخ يكتب لهم احرازاً من آية بعد آية بعد آية من الكتاب الى ان علمهم القرآن برمته

مع الرومان فاجتاحوا أرض فلسطين وفينيقيا وتخطوا إمارة حَجَر متهددين مصر من جهة رأس البحر الاحمر فهاذهم والنس وعمل معهم معاهدة جديدة . ولأن كثيرين منهم كانوا مسيحيين من مذهب المصريين اشترطوا عليه اقامة اسقف منهم بالاسكندرية وبعثوا لها كاهنًا يدعى موسى الذي بوصوله أراد لوقيوس أن يرسمه لكنه أبى الآ أن يكون ارتسامه من الأساقفة الهمومسيانيين المبعدين بالصعيد (٥٨) ومن هذا الوقت خرجت حَجَر من ملك الرومان وبعد ان كانت أسقفية عامرة بالكنائس ولها باب نصر جميل ومرسح للالعاب لعبت فيها ايدي سبا وأهملت حتى صارت ركة يعوي فيها الذئب ثم اتست من الناس اعصاراً إلى ان اهتدى اليها الرحالة بر كهرد وكشف عما بقي من أنارها من وراء الاثل والدفل والشوك

الفصل الثامن

تيودوسيوس الاول . ارقاديوس . تيودوسيوس الثاني

سنة ٣٧٩ م الى ٤٥٠

تيودوسيوس الاول سنة ٣٧٩ م الى ٣٩٤

(١) يمتاز حكم تيودوسيوس بضربته القاضية على الوثنية ، لا سيما وان هذا الدين كان قد ابتدأ ان يسقط حتى من قبل ان صارت المسيحية دين الملوك وكان قسطنطين قد زعزع أركانه بقتله عدة من معابده لكن تيودوسيوس فانه بأول سنة من ملكه سنّ شريعة بأن دين المملكة بأسرها (ما خلا من كانوا يهوداً) هو الثايت ، وبعد قليل أمر بحفظ يوم الاحد عن العمل فيه دون السبت وبعث حاجبه قينجيوس لمصر أموراً بتنفيذ هذه الاوامر

(٢) فاستقبل أسقف الاسكندرية تيوفيلوس هذه البلاغات بأعظم الفرح والسرور وبأدراكاً حالاً بتطهير معبد مترا وكسر الأصنام بمعبد سيرابيس الشهير وعرض ما كان فيه من آلات العبادة لسخرية المسيحيين رغمًا عن وجود كثيرين من اهل المدينة ممن كانوا لم يزالوا

يكرمون هذا المعبد فاجتمع منهم جمهور عظيم وثار مدافعاً عن ديننا
وتفاليده من هذا التعدي فاصطدم الفريقان حتى جرى الدم كالسيل
إلا أن الوثنيين كانوا أقل عدداً فاضطروا للانهزام وهرب زعمائهم
من الاسكندرية خوفاً من الحكماء

(٣) ثم استأنف الأسقف هدم معابدهم وكسر أصنامهم فصب منهم
أجراً، إلا صنماً واحداً أبقاءه ليكون سخرية لرجالهم. وقطعت الجنود
صنم سيراييس الخشبي بالفؤوس وأحرقوه أما رجاله فيظن بأنهم
كانت من الرخام واحداً الآخر محفوظاً « بالبريتش موزيوم » في
لندن ولا دليل على أصلها إلا كبرها

(٤) وعند انتهاء معبد سيراييس تشتت السبعائة الف كتاب التي
كانت فيه لأن المؤرخ الاسباني أوريوس الذي زار الاسكندرية
بالعهد التالي لم يجد فيه لهذه السكتب أثراً سوى الخزانات الخاوية

(٥) وهنا يجبرنا الانصاف أن نقول بأن كل اضطهاد ديني هو ممقوت
أكان من وثنيين أم مسيحيين لا سيما وأنه يصيب أحرار الناس
أكثر من سواهم فإن الذين اضطهدهم أسقف الاسكندرية كانوا
من علماء ذاك الزمان حنفاءً وأحدهم أولمبيوس كاهن معبد سيراييس
كان مع كبر سنه ومقامه رجلاً وديعاً حليماً عاقلاً مسموع الكلمة
لا عيب فيه كافضل شهداء المسيحيين ومثلهم حر الافكار . لا بل ان
الفرق بين الاضطهادين هو بعيد جداً لأن الوثني كان عن سياسة

واقْتِصَادَ فَقَطْ . وَاِمَا الْمَسِيحِي فَكَانَ عَنْ غُلُوِّ بَدِينِ اَسَاسِهِ الرَّحْمَةِ
وَالْوَدَاعَةِ سَالِمٍ دَوَاعِي الصَّدْرِ لَا بِاسْطَغَا اَذَى وَلَا مَانِعًا خَيْرًا وَلَا
قَانِلًا هُجْرًا

(٦) وَبَعْدَ هَذَا الْاضْطِهَادِ لَمْ يَبْقَ لِلوُثْنَيْنِ مَعَابِدٌ وَلَا مَدَارِسُ يَأْوُونَ
إِلَيْهَا بِالْأَسْكَندَرِيَةِ فَانْسَحَبَ الْبَعْضُ مِنْهُمْ إِلَى قَانُوبُوسَ وَفَتَحُوا
هُنَاكَ مَدْرَسَةً لِتَعْلِيمِ الْكِتَابَةِ الْقَدِيمَةِ وَبِالْإَخْصِ السَّحَرِ وَالطَّلَاسِمِ .
وَتَحَوَّلَتْ مَعَابِدُهُمْ لِكِنَائِسَ طُمَسَتْ نَقُوشُهَا وَصُورُهَا بِالطِّينِ وَالْكُاسِ
وَلَكِنْ الْآنَ وَقَدْ مَاتَ أَهْلُهَا فَقَدْ قُشِطَ عَنْهَا الطِّينُ وَهِيَ تَرَى
الْآنَ فَلَا تَحْرُكُ عَاطِفَةً وَلَا سَاكِنًا

(٧) وَثَابِرَ الْمَصْرِيِّونَ الْمَسِيحِيُّونَ عَلَى تَحْنِيْطِ مَوْتَاهُمْ كَالسَّابِقِ ، رَغْمًا عَنْ
تَحْرِيمِهَا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْطُونِيُوسَ . أَمَّا أَغُوسْطَيْنُ فَكَانَ بِالضَّدِّ يُحَدِّثُ
مِنْ ثَبَاتِهِمْ عَلَيْهَا ، يَقِيْنًا مِنْهُمْ بِالْبَعْثِ . وَكَانُوا قَبْلًا يَصُورُونَ إِيزِيْسَ
كَالنَّجْمِ سَيْرُوسَ طَالِعًا مَعَ الشَّمْسِ عِنْدَ أَوَّلِ فَيْضَانِ النَّيْلِ ،
فَصَارُوا يَصُورُونَ الْعِذْرَاءَ فَوْقَ هَلَالٍ صَاعِدَةٍ لِلسَّمَاءِ . وَكَانُوا
يَشْعَلُونَ الشَّمْعَ بِمَعَابِدِهِمْ الْمُظَالِمَةِ ، فَصَارُوا يَشْعَلُونَهَا بِالْكِنَائِسِ الْغَيْرِ
مُظَالِمَةٍ . وَكَانَ لَهُمْ عِيدٌ يُسَمَّى عِيدَ الشَّمْعِ ، فَصَارَ عِيدُ الشَّعَانِينِ .
وَكَانُوا فِي الْخَامِسِ وَالْعِشْرِينَ مِنْ شَهْرِ طَبِي الْمَوَافِقِ عِشْرِينَ مِنْ
كَانُونِ الثَّانِي يَعْجِدُونَ بِأَكْلِهِمُ الْخِلَاوَى فَصَارُوا يَأْكُلُونَهَا فِي
(١١)

السادس من هذا الشهر بعيد الظهور . كما انهم بوضعهم بالقرن الرابع رتبة كهنوتية قد اتبعوا بذلك الطريقة المصرية القديمة التي لم تكن تعرفها الاغريق ولا الرومان وبنما كهنة مسيحي الدنيا تلبس الصوف كان لباس كهنة مصر من الكتان النقي البياض كابس كهنة الاوثان من قبل ، او لأنه كما جاء في كتاب الوحي «لبس الابرار» . ثم انهم قلدوا اولئك الكهنة بمخلق او اسطر رؤوسهم . ومن قبل الفي سنة كان للمصريين كاهن في ثيبه لقمه حاجب باب السماء ، فصار حامل مفاتيح السماء البابا

(٨) وبعد أن صار الايمان بالتثليث اجبارياً انتدب الامبراطور مائة وخمسين اسقفًا للقسطنطينية لتقرير قانون الايمان النقي فصادقوا عايه ولعنوا الاريسيين وطردهم من كنائسهم ففرح بذلك المصريون والعرب وازدادوا محبة وولاء للامبراطور حتى انه لما احتاج لجند يثق به ليرسله لتساليا لم يجد أوثق من المصريين لهذه الغاية

(٩) وإذ حان الوقت لفيضات النيل بتلك السنة ولم يف ، ضجّ الوثانيون وتفاءلوا من خراب معابدهم وهياكلهم حتى خشي الحاكم اواغريوس ان يعقب ذلك شغب وقتال فكاتب يخبر الامبراطور بالامر لكن اذ بعد قليل فاض الماء زال البأس وسكن الناس

(١٠) وبعد زمان اثناسيوس وسقوط الاريسيين بالاسكندرية

انحصرت العلوم عند الوثنيين كشيون وفافوس وديوقنطوس ممن وصات الينا كتبهم بالحساب والجبر والهندسة والاسطرلاب الصغير وفيضان النيل والسنة المصرية من ٣٦٥ يوماً، اما بولس الاسكندري فانه يحسب السنة من ٣٦٥ يوماً وربع يوم على التقويم اليولياني مبتدئاً من عهد ديوقليتيان . ومن تفصيله عن كيفية معرفة يوم الاسبوع من معرفة يوم الشهر وطريقة معرفة رأس السنة بأي يوم يقع من الاسبوع نعلم بأن تقسيمنا الايام الآن هو عين تقسيم المصريين . كما ان من سرده اسماء الآلهة المختصين بايام الاسبوع نعلم بأن تسميتنا لها منقولة عنهم ايضاً . وقبل ذلك كان المؤرخ هيرودوتوس قد أشار الى مثل هذا ، وديون قاسيوس يزيدنا بأن كل يوم من اسبوع المصريين هو باسم نجم وان سبت اليهود كان يُسمى « سب » وهو ساثورن الرومان وزحل العرب

(١١) ومن كتبة هذا العصر كان المنطقي هورابولو احد أساتذة الاسكندرية ثم القسطنطينية ، ألف كتاباً باغة القبط يفسر فيه الكتابة الكهنوتية ترجمه لليونانية كاتب يدعى فيليب ولكنه لم يحسن الصنعة فأثت ترجمته قليلة الفائدة

(١٢) ومن نتائج اضطهاد الاريسيين بأول هذا العهد كان تعطيل المدرسة العليا المسيحية التي كان يرأسها غودون خلف ديديموس الاعمى والثالث عشر من رؤسائها الفضلاء مدة القرنين الاخيرين

منهم اثنان ام ثلاثة على المذهب الهوموسياني بينما اكثر التلامذة كانوا اريوسيين ، فلما عادت السلطة للهوموسيانين انسحب غودون مع تلامذته الى صيدا من بفيلىا ولم يبق بالاسكندرية مدرسة عليا الا عند الوثنيين وضاعت حيثثذ منها تعاليم اقليمس واوريجين وهيراقلاس وديونيسيوس

(١٣) فلم يخرج بهذا الزمان كاتب من مسيحي مصر البتة انما يوجد لمطران الاسكندرية تيوفيليوس رسالات سنوية كان يصدرها لاساقفة مصر معيناً لهم فيها يوم الفصح وفيها طعن بحق اوريجين ترجمها جيروم لللاتينية . وكان بالصعيد الراهب يوحنا الموصوف بالقداسة وروح النبوة وكان الامبراطور يعتبره ويستشير به بمخاطوظه

ارقاديوس سنة ٣٩٤ م الى ٤٠٨

(١٤) ولما تُوفي تيودوسيوس انقسمت المملكة مرةً اخرى ، فان ابنه الاكبر ارقاديوس استولى على القسم الشرقي منها وابنه الأصغر هونوريوس على القسم الغربي ، اما الحاكم فعلاً في مصر فكان الأسقف تيوفيليوس خصم الاريسيين مذهباً والاغريق سياسةً وبذلك استمال عواطف المصريين لجهته . ولما رهبان الصعيد زعموا أن بسفر التكوين وقانون ايمان نيقيا تصريحا بتجسد الخالق ، وانكر عليهم ذلك ديوسقوروس اسقف هرموبوليس ورهبان شطيس

مستشهدين بقول اوريجين ان الخالق هو روح لا غير، رأى
 تيوفيلوس أن يطاوع الاولين وحزبهم الأقوى . ولكونه لم يجتهد
 على تكفير اوريجين بالاسكندرية فطالب من ايفانوس أسقف قبرس
 أن يسنده وهذا جمع في سلاميس اساقفة الجزيرة وقرر معهم تكفير
 اوريجين ، ذاك الفاضل الذي ظل مدة قرنين من الزمان قدوة
 المسيحيين وامامهم

(١٥) ولم يكن هذا الخلاف لينتهي بالجدل فقط بين المصريين اكان
 الموضوع مسيحياً أم عجلاً أو تمساحاً فان اثناسيوس قام بجنود
 الاسكندرية الى جبل النطرون واجتمع اليه رهبان الصعيد
 فكبسوا منازل رهبان شطيس وأحرقوها وعاثوا في اهلها

(١٦) وهكذا نرى اننا كلما تقدمنا بتاريخ المسيحية المصرية كلما زدنا
 حزنًا وأسفًا فان الناس شرعوا بهذا الزمان ينبشون قبور الشهداء
 والقديسين ليتبركوا بعظامهم ويستشفون بمسماها وازدحت كنائس
 القسطنطينية بالموميات حتى ان يوحنا فم الذهب شكر من مصر
 لتغذيتها أجسام فقراء العاصمة بحنطتها وقلوبهم بايمانها ، وقال هذا وهو
 ليس من مذهب المصريين

(١٧) ومن تقاليد المسيحيين الوثنية بذلك الزمان كان اكرامهم لبعض
 اشجار بأنها مقدسة . فقالوا بأن الأيخ (برسيا) هي شجرة يسوع
 المقدسة لأنها أظلته وابويه حينما أتوا مصر وسجدت له . وان شجرة

منها في هرمو بوليس كانت تشفي مرض لامسها وان الامبراطور
يوليان أمر بقطعها نكابة بالمسيحيين وكانوا يزرعون هذه الاشجار
في حدائقهم واذا ذبلت قالوا بأن الوثنيين كانوا يؤذونها فأمر
ارقاديوس بأن كل من قطع أو باع شجرة منها يغرم بدفع جزاء
قدره خمسة ارطال من الذهب، ولكن رغمًا عن ذلك فان وجودها
انقرض مع الزمان ربما لعدم معرفتهم بطريقة تربية شجرة غريبة
لا علم لنا بحقيقة جنسها الآن انما اكثر الظن بأنها كانت شجرة
السَّام (ميموزا) التي اذا مسَّها يدٌ حنت أغصانها كأنها تسام
ولذلك تحبها العرب وتحرم أذاها

(١٨) وقد رأينا انحطاط العنصر اليوناني بالاسكندرية بسقوط الحزب
الاريوسي بالمائة السنة الاخيرة فالآن نرى ايضًا انحطاط الاسكندرية
من ثروتها وعجزها عن نفقة تنظيف النهر والترع بجوارها لأننا نرى
الامبراطور أمرًا بتخصيص اربعمائة صولدي من مدخول كماركها لهذه
الغاية وذلك عبارة عن مائتين واربعين ليرة من عماتنا الدارجة

(١٩) وبهذا الزمان اشتهر قلوديان اليوناني الاسكندري بشعره اللاتيني.
حتى كاد أن يُعدَّ من طبقة ورجيل ولوقريتيوس واويد وكان
ارقاديوس واخوه هونوريوس يكرمان منزلته كثيرًا

(٢٠) وكان بهذا الزمان من مشاهير الغرباء بالاسكندرية النطاسي.
بولس من اجينا، جزيرة بالقرب من اثينا، له كتاب بالطلب مفيد

وسيزينيوس الفيلسوف الافلاطوني المتخصص على يد البطرك تيوفيليوس الذي لم يعترف بالبعث الا بعد أن صار أسقفًا على البطلسيه ، بالقرب من القيروان ، وهو رجل متزوج مع ان القانون يستدعي عفة الأسقف . وكان البطرك قد سأله أن يترك زوجته لدى ارتسامه اسقفًا لكنه أبى هجرها ، لابل قام معها بخدمان الدين والرعية أحسن خدمة . وكان قد درس الرياضيات بصباه على الاساتذة هبأثيا ابنة ثيون الوثنية فظلّ يكتبها من البطلسيه بالمسائل العلمية ويكلفها بارسال آلات الرصد التي أهدى منها اسطرلابًا للقائد الروماني رفيقه هناك

(٢١) أما من وجه الحالة الاقتصادية فان مصر كانت حينئذٍ بأسوأ الحالات . فمن جهة كانت قبائل افريقيا تسلبوا على ليبيا وبعض الارياف فتسلب وتنهب ما امكنها ومن الجهة الاخرى كانت الرمال تسطوا على المزارع فتعطلها حتى ضاقت الاماكن على الفلاحين فهجروها وتحول اعظمها الى مستنقعات وبائية وأهملت المقالع لتوقف البناء ، ومناجم الذهب لفراغها منه . وكان سيزينيوس يرى هذه الحال بعين ماؤها الدموع من فقر البلاد ويسأل الله اخلفه بالعباد ليلاً ونهاراً

تيودوس الثاني سنة ٤٠٨ م الى ٤٥٠

(٢٢) واذا مات ارقاديوس خلفه ابنه تيودوسيوس وهو بسن الثاني

سنين وبعد ذلك بخمس سنين مات البطرك تيوفيليوس فتجدد النزاع بين الارويسيين والهوموسيين على خلفه فاولئك كانوا يريدون تيموتاوس وهؤلاء، وهم الاكثرون، كانوا يريدون كيريل نسيب البطرك المتوفي فتجادلوا وتشاحنوا وتضاربوا بالأسواق ورغماً عن ميل القائد ابوندتينوس للارويسيين فان الفوز كان لحزب كيريل فأقاموه بطركاً

(٢٣) ولم يكن كيريل أقل بغضاً من سلفه للارويسيين وللبيهود أيضاً وكثيراً من الأوقات كان المسيحيون يتعدون على اليهود لا سيما في مرسح الالعب والرقص يوم السبت فتخاصموا يوماً وفصلت الجنود بينهم قبل أن يؤل الامر الى قتال لكن المسيحيين ادّعوا بأن اليهود تهددوهم بحرق بيعتهم فتجهروا باليوم التالي وعلى رأسهم البطرك وهجموا على كنائس اليهود فمهبوها وأحرقوها وطردوا كافة اليهود من المدينة

(٢٤) فاستاء الحاكم اورستيس من تصرف البطرك ولا سيما من خسارة الجزية اليهودية ولكن لما بلغ رهبان جبل نظريه بأنه يرغب التعرض للسلطة الكنائسية هرولوا للاسكندرية وتجهروا بأسواقها. واذا مر بهم الحاكم يعجلته شتموه صارخين بوجهه «يا وثني يا اغريقي» لا بل ان احدهم عمونيوس رماه بحجر أدماه فسل حرسه سيوفهم وبددوا هؤلاء الرهبان وطردوهم من البلد وقبضوا على المجرم وقتلوه فاعتبره

البطرك شهيداً وابنه باسم القديس توما. لكن لما الجمهور لم يطاوعه على ذلك برجل أحق عدل عن رأيه والنهي التأبن المذكور

(٢٥) إنما كل هذه الشناعات لا تُعد شيئاً إزاء ما كان من جناية هذا الأسقف ورعيته فيما بعد. فان هبائثا ابنة ثيون المذكورة آنفاً المولودة سنة ٣٧٠ زوجة ايزيدور الفيلسوف البديعة الحسن والكمال ومعدن اللطف والذكاء، ومن عام آزمانها المفلقين، وخطباء المدرسة الأفلاطونية المحدودين، كانت عن غير قصد منها قد أتارت حقد الهوموسيين عليها لعدم اتباعها دينهم فعمدوا بتهم على هلاكها وترقبوها يوماً وهي مارة بعجلتها فهجموا عليها وسلوها من مركبتها وجروها ورأهم على الأرض إلى معبد قيصر وهناك جردوها من ثيابها ورجعوها حتى ماتت ثم مزقوها إرباً إرباً وحملوها لأتون خارج المدينة أحرقوها فيه وذلك في الصوم الكبير سنة ٤١٤^{١٥} ولضعف الحكم ذهب دمها هدرأ

(٢٦) وبهذه الأيام انحصر المذهب الأريوسي بين الجنود اليونانية، فالذين كانوا بحصن بابل أقوى حصون مصر بنوا فيها كنيسة لهم باسم القديس جرجس أي الاسقف الاريسي الأخير، والذين كانوا بالبطلسية فعلوا نظيرهم ولم يزل اسم هذا المكان جرجا وصاروا يرسمون صورته كفارس يشك برحمه تيناً هو أثناسيوس الهوموسياني كما هي صورته على بعض النقود الانكليزية. أما اتخاذ الانكليز القديس جرجس شفيعاً لملكهم لا يُعرف له باب إلا أن تكون الصورة

أعجبته ففعلوها . ولكن القديس الذي يستحق أن يسمى شفيعاً لهم فهو
غريغوريوس لأنه كان أول مبشر لهم بالمسيحية فرمما انهم قديماً قد
استنبهوا بالاسمين لقرب مخارج حروفهما فبدلوا أحدهما بالآخر وهم
لا يشعرون

(٢٧) أما الهوموسيونيون فكانوا يبنون كنائسهم على اسم القديس
اثناسيوس وصاروا يستقنونها بالخشب عوضاً عن الصفاح القديم ثم ان
تيودوسيوس لكثرة الوفود التي كانت تأتيه من الاسكندرية
بسعائيات ضد البطرك أو الحاكم أمر بأن لا يخرج اليه منها وفد إلا
بإذن الحاكم ورأي المجلس البلدي فاستراح هو ولكنه فتح باباً
لاستبداد الحكام لا طريقة لسنده

(٢٨) وبهذا العهد أنفي يوحنا فم الذهب من أسقفية القسطنطينية لأسباب
لا تعلق لها بتاريخ مصر سوى أن الحرك فيها كان أيضاً أسقف
الاسكندرية . ونفي معه بلاد يوس أسقف غلطة مبعداً إلى اسوان
وهذا له كتاب تراجم كثيرين من نساك الصعيد الذين عرفهم قبل هذا
الوقت ثم لما أفرج عنه سار قاصداً بلاد الهند ليطلع على حكمة براهمتها
وبوصوله إلى عدوله على البحر الأحمر وجد هناك أسقفها موسى راغباً
بمرافقته فركبا مركباً تجارياً سار بهما طويلاً وبعد مشقة بلا فائدة
عاد بهما خائبين من غرضهما فصعد بلاد سيوس إلى ثيبه وهناك تعرّف
بتاجر اسمه قوسماس وقص عليه خبر سفره فأجابه هذا بأنه قد أفات

من بلاء عظيم لانه هو أيضاً سافر مرةً قاصداً الهند لكنه أخذ أسيراً في جزيرة سيلان ولم يتيسر له الهرب منها الا بعد ست سنين مرةً جداً (٢٩) وكان أسقف القسطنطينية بهذا الأثناء نسطور يوس ولأنه أنكر على الجمهور قولهم مريم أم الله وقال بل هي أمة الله واضطرب الناس لذلك حشد الامبراطور مجمعاً من أساقفة المملكة بأفسس ليحكموا بالخلاف فحكموا بتضليل نسطور يوس فنفاه الامبراطور إلى حبيبه بالمرج الكبير بين أخصام مذهبه لكن لما بعد ذلك سطت العربان على المرج هرب منهم إلى بانو بوليس وتوفي فيها على أثر مشقة الفرار إلى بالصحراء

(٣٠) وبالقرب من هذا الزمان جاء مصر الراهب الغالي قاسيانوس ليدرس قوانين الرهبنة الصعيدية ومن كتاباته لآخوانه في إيتاليا وغيرها من بلاد المغرب يظهر بأنه كان يحب لهم هذه المعيشة لان كثيرين منهم أتوا مصر وقطنوا الصعيد ، ولعدم معرفتهم لغات القوم القبطية أو اليونانية وجب إرسال قوانين الرهبنة لجيرونم في روما لينرجمها لهم وهم الذين نشروا في تلك الجهة من مصر رسم الخواري بطرس قابضاً مفتاحاً . ويرى الآن رسمه على جدران معبد السبوعة القديم بالنوبة مواجهاً صورة رمسيس الثاني الذي أصلاً كان يواجه أحد الآلهة مقدماً له هداياه

(٣١) وللرهبان فضل لا ينكر لانهم ترجعوا العهد الجديد للثلاث لغات القبطية وهي الصعيدية والبشمورية والقبطية الصحيحة لغة الارياف

وترجموا قوانين مجمع نيقيا وأخبار الشهداء والآباء الاولين وقوانين الكنيسة القبطية وكتاب الحكمة الدينية المسمى بستيس صوفيا الذي ينكر معجزة الحمل ليسوع ويزعم بأنه إذ درج آتاه الروح القدس بصورة صبي من سنه وعانقه فامتزجا وان من هذا الامتزاج كان اتحاد الطبيعتين ليسوع

(٣٢) وترجموا التوراة والانجيل لليوناني مكتوبين على جناس من الورق لكن أقدم صورة وصلت إلينا من هذه الترجمة هي على الرق . صورة منها بالواتيكان وأخرى بمكتبة باريس وأخرى في بطرسبرج وأخرى بالبرتش موزيوم جميعها من نقل الاسكندرية . والاوليتان ربما هما أقدم هذه النسخ . وبمقابلة النسخة التي في لندن على التي بالواتيكان يظهر لنا كيف كان التدرج للجدال بين علماء اللاهوت عن يسوع لقول بعضهم « نُن بوسه بكاره » وقول آخرين « بوسه نُن بكاره » اي لا يقدر يخطيء أو يقدر ألا يخطيء . أما الترجمة اللاتينية المسماة « ولجات » فانها منقولة عن ترجمة يونانية قديمة ولضعف لغتها وترجمتها الحرفية بدون اعتبار وضع الكلام بين لغة ولغة يظهر بأن مترجمها كان يونانياً من الاسكندرية

(٣٣) وبهذا العصر تقدمت صناعة عمل الورق من الفافير (ومنه اسم الورق بلغات الافرنج لكون الفاء والياء مترادفتان) حتى جاز أن يسمى ورق الكتاب أي الكاغد اما ورق الفافير المستعمل بأول

قرن من هذا التاريخ فكان يؤخذ على طبيعته ويلصق بمادته ، ثم بالقرن الثالث صار يلصق بالغراء انما ورق هذا الزمان لم يكن بقوة القديم منه فلم يبق له أثر . وبوجه الاجمال لا يوجد كتاب مسطر قبل القرن الحادي عشر إلا ما هو على الرق

(٣٤) وبهذا الزمان حضر للاسكندرية بعض شبان الأرمن لدرس اللغة اليونانية وتصحيح ترجمة الكتاب المقدس وكان بينهم موسى الخوريني الذي عُرف فيما بعد بمؤرخ الارمن . وكلهم كانوا مرسلين بعناية البطررك اسحق والعالم مزروب ، رجائين من أهل الفضل والذكاء ، وغايتها كانت إبدال حروف لغتهم المنقولة عن لغات الفرس والاغريق والسريان بحروف يونانية تناسب مخارج لغتهم وأيضاً تصحيح ترجمة الكتاب المقدس المنقولة عن العبراني والسرياني على الصورة اليونانية فلما وصل هؤلاء الشبان للاسكندرية لم يجدوا فيها أستاذاً مسيحياً فاضطروا لدخول المدرسة الافلاطونية التي كان رئيسها سيرانوس فقرأوا فيها كتب اللغة اليونانية والتاريخ وتاريخ أرمينية لموسى يشهد باستفادته كثيراً من هذه المدرسة . ولما اكملوا دروسهم عادوا لبلادهم فازدهت أنديةها بعلومهم وآدابهم ولم تزل مؤلفاتهم بأيدي رهبانهم بدير القديس اليعازار بالبندقية واكثرها منقول على رقق قديم مغسول يظهر فيه أثر من آيات الكتاب المقدس بلغة اليونان القديمة

(٣٥) أما كتبة هذا الزمان المسيحيون فما منهم من يستحق الذكر . فان

كبيريل البطرك لم يترك لنا سوى تشييعه على النسطوريين ويوليان
والرهبان المجسمين . وايزيدوروس ترك رسالات دينية جدلية كتبها
من بلوزيوم ونونوس من بانوبوايس الذي ترجم الإنجيل يوحنا شعراً
وله نشيد بوصف بانخوص الاله الخمر اليوناني

(٣٦) وكانت رهبان جبل سيناء عرضة بذاك الزمان لتعدي العربان
لا حصن لهم سوى الفقريين تلك الجبال حول وادي فاران وسفوح
جبل سربال وكان جبل سربال يسمى أولاً جبل سفر والعرب
لأن تسميه وادي المكتب . انما اسمه الاول فلاعباره منزل الوصايا
العشر والثاني فاسبب الكتابات التي تركها الزوار على صخورهِ من
الف سنة أو أكثر قبل هذا الزمان ، بعضها رومية و بعضها عبرية
من زمان حزقيا لا يفهم منها الا القليل

(٣٧) وكما كان العطب قديماً من اختصاص الكهنة كان صنف من الرهبان
أيضاً مصلحتة العطب يُسمى فارابلائي للداواة وخدمة المرضى المحتاجين
بجاننا . فحصل له اعتبار من الحكام وحاز على امتيازات وعلوفة من
الدولة مما جعل كثيرين يرغبون الاستخدام فيه حتى من ذوي الثروة
لكن الدولة رأت أن تحصره بستمائة نفر من ذوي الحاجة . وكان صنف
آخر من الرهبان يعتني باسعاف الفقراء والغرباء البائسين

(٣٨) ورأى الامبراطور فقر الاسكندرية بهذا الزمان فأمر بزيادة مائة
وعشرين أردبا من القمح للاحسانات اليومية ومنح أعضاء مجلس

البلدية امتيازات تشطهم على الخدمة وبنى كنيسة كبيرة على اسمه وأمر الحاكم بترميم الكنائس العتيقة وبناء كنائس جديدة بقدر الامكان

(٢٩) نعم ان الوثنية كانت قد ضعفت جداً بعد هدم معابدها إلا أن علماء الفلسفة الغير متصربين كانوا لا يزالون من مدرسي العلوم الرياضية واللغة والتاريخ بالاسكندرية لكنهم لانكسار شوكتهم واهمالهم من الدولة صدمت قرائحهم فأنحصر اشتغالهم بتفسير أرسطو وأفلاطون والجدال بأبهما الأفضل . ثم لما انتقل سيرانوس رئيس المدرسة الافلاطونية إلى أثينا صارت هي الكرسي لهذه الفلسفة

(٤٠) أما فلسفة أرسطو فكان الاستاذ فيها بالاسكندرية أولميودروس الصعيدي المولد الذي نعلم منه ان زمانه كانت الزراعة بالصعيد نامية جداً وانها كانت تُسقى كل ثالث يوم مرة بالصيف وكل خامس يوم مرة بالشقاء من آبار عمقها مائتان الى ثلاثمائة قدم فتعطي موسمين من الشعير وثلاثة من الدخن بالسنة . ويقول بأنه زار أرض النوبة قاصداً جبل الزمرد بالصحراء العربية بين قبطوس وبرنيقة التي هي الآن ساقية القبلة بالجهة الغربية من البحر الاحمر ، لكنه لم يصل اليه لاعتراض العربان بتلك الجهة . ويوجد له كتاب بالكيميا في مكتبة باريس لم يطبع بعد

(٤١) وهذا الزمان حضر للاسكندرية فروقوس للدرس فيها ، فقرأ

فلسفة أرسطو على أولمبيودوروس والرياضيات على هيروديان على ليوناس والمنطق على اوريون الذي كان يفتخر بأنه من نسل كهنة ثيبة ، ودرس اللغة اللاتينية بمدرسة الرومان ونبع فيها ثم مال للدرس. فلسفة أفلاطون فالحق بسيرانوس في أثينا وفيها صنف كتبه بالرياضيات والفلسفة الأفلاطونية على منهج خاص له ربما شط فيه أكثر من شط بلوتينوس بالموضوع . وهذا شأن كل مذهب اما بالزيادة اما بالنقصان يضيع معهما القصد الاول

(٤٢) ومن هاجر من علماء ذلك الزمان لاثينا ففريتوس وأوريون وأسقليبيودوتوس الكاتب بالطب والرياضيات والآداب وهو برهان على وجود بقية لم تعتق الدين الجديد، لا بل ان كثيرين من الناس كانوا لم يزالوا على اعتقادهم القديم لأننا نراهم سنة ٤٣٦ مجتمعين سرا بالليل باحدي مراسح الاسكندرية للاحتفال بعيد النيل لما سقط بهم السكان وهلك منهم بسقوطه خمسمائة نسمة أو أكثر

(٤٣) وبهذا الوقت كانت إدارة الأمور الخارجية بالقسطنطينية متعلقة بوزيرين من الأعيان أحدهما للمشرق والآخر للباقيان وكانت مصر حينئذ مقسومة إلى ست ولايات، القيروان والمرج والصعيد والأرياف الغربية والأرياف الشرقية وليبيا . وكل والٍ من ولايتها له دائرة من مستشارين وقضاة ومحاسبين وكتبة أما الجنود فكانت موزعة بين خمسين من مدنها كالتحت قيادة أمير كبير ودوقين لو كانت

قوتها بنسبة عددها لكان حكم هذا الامبراطور يُعدُّ بعظمة حكم اغسطوس لكن الجنود الرومانية واليونانية كانت بينها قليلة والباقي كانوا اخلاطاً اكثرهم من رعايا الافرنج والمغاربة والصرمط والاشوريين والبلقانيين والافريقيين والسودان ، بينما حامية العراق كانت من السودان وحامية تراسيا اكثرها من عربان الصعيد بخيلهم وجاهلهم ، لان القبط كانوا قد نسوا الرجولية من زمان طويل لا يصلحون للجنديّة . وكان جيُّ الخراج مناطقاً بعدة امراء ومستخدمين بكل من هذه المقاطعات ما عدا الاسكندرية التي كانت لا تعطي خراجاً بل تستفيد منه

(٤٤) ثم بعد قليل من هذا الزمان انقسمت الولايات الى ثمان ، الصعيد الأعلى وفيه احدى عشرة مدينة والصعيد الأوسط والمرج الكبير وفيهما عشر مدن ثم القيروان ثم شطر من ليبيا جهة مصر ثم شطرها الآخر جهة الصعيد ثم النصف الغربي من الارياف ثم نصفها الآخر ثم بوبسطي التي هي الآن تل البسطه الى البحر الاحمر منها ما كان تحت حكم دوقا ومنها تحت حكم قائد عسكري ومنها تحت حكم متصرفين ، أي ان مصر اصبحت اقليماً رومانياً

(٤٥) ولكن بينما كانت دولة المشرق تزداد ضعفاً ونحولاً كان المغرب يهول الى الخراب التام هرولة بسبب انتقاض الولايات الاوربية

وشطوط افريقيا على الدولة . فالغوط اهل جنوب الدانوب سطوا بأول هذا العهد على ايطاليا ونهبوا روما تحت قيادة ملكهم العريق وبعدهم جاء الهن من شمالي الدانوب تحت قيادة ملكهم اتيلا واستولوا على شمالي ايطاليا بعد موت تيودوسيوس الثاني بسنتين ولولا ان التليان يرضونهم بالمال ويموت اتيلا لكانوا دخلوا روما ايضاً ونهبوها ولكن لم تكن هذه الوسائل والمرقعات مما يفيد المرض العضال ، فانشقت المملكة الى نصفين وانفصلت مصر عن روما انفصالها الاول بعد ائتلافهما مدة سبعمائة سنة وعادتا غريبتين بعضهما عن بعض كما بالزمان الذي فيه ارسلت سنا توراوما بعثاً لبطليموس فيلادلفوس تخطب مصادقته

الفصل التاسع

مريكان . ليو . ليو الثاني . زينو . باسيل . انستاس

سنة ٤٥٠ م الى ٥١٨

مريكان سنة ٤٥٠ م الى ٤٥٧

(١) ولما مات تيودوسيوس الثاني استولت اخته بولشيري على زمام الملك وعمرها اثنان وخمسون سنة واختارت مريكان احد الاعيان زوجاً لها واصله كان جندياً ككثيرين من ملوك الرومان ، فوجد المنازعات الدينية قد عادت بصفة جديدة بين المسيحيين بعد ان كادت بزمان قسطنطيوس ووالنس ، بالتحزب للهوموسيين والاريوسيين ، ان تفصل مصر عن جسم المملكة لولا تلافي هذا الخطر من تيودوسيوس الأول وسلفائه بحسن سياستهم . فان كاهنًا يدعى اوتيخيس اخذ يعظ بهذا الزمان بالقسطنطينية بالطبيعة الواحدة ضدًا للمذهب رؤسائه القائلين بالطبعتين ، واذا طرده البطرك من الكنيسة انتصر له ديوسقوروس بطرك الاسكندرية خلف كيريل ، وكهنة اسقف القسطنطينية فرأى الامبراطور ان يحشد اساقفة

المملكة للنظر في هذا الخلاف فاجتمع منهم ستمائة واثناون وثلاثون اسقفًا في خلقيدونيا وحكموا بضلال الكاهن المذكور واسقف الاسكندرية فعزله الامبراطور واقام بروتيروس عوضًا عنه (٢) وكانت مصر إذ ذاك قد تبرأت تمامًا من مذهب اريوس واتحدت على مذهب الطبيعة الواحدة الذي صار فيما بعد يُعرف بالمذهب اليقوي فأبت أن تأخذ دينها عن اغريق القسطنطينية وانكرت قرار مجمع خلقيدونيا

(٣) وهكذا عند دخول بروتيروس للاسكندرية محفوفًا بالجيش استقبله الجمهور بالرحم والسهام . ولما التجأت عصابته الى معبد سيرابيس الشهير اضرم المصريون فيه النار وأبادوهم عن آخرهم واستبدوا بالمدينة حتى اضطرَّ الامبراطور ان يبعث جيشًا ضدهم ، فحاصروا المدينة وهدموا اسوارها واقرُّوا الاسقف على كرسيه ، ثم امر الامبراطور بتسكير مراسح الالعاب وقطع الاحسان من الخراج مدةً من الزمان عقابًا للمدينة

(٤) وبينما هذه الحوادث تعرقل الحكم وتزعزع اركان الدولة كانت العربان تكتسب جرأةً لتشويش اطراف المملكة والتعدي عليها حتي في جنوب الشلال . ولمدة ما كانت الحامية الرومانية المقيمة في اسوان قادرةً أن تصدهم عن التوغل بالبلاد ، لكن إذ انضم اليهم النبط دخلوا الصعيد وامتلات ايديهم من الغنائم حتى حسبوا

أن لا قوة تقدر على ردّهم . فخرج اليهم القائد مقسيمينوس ونال منهم فطلبوا الصلح حالفين بأنهم ألا يتخطوا حدودهم ما دام مقيماً في ثيبه فأبى مصالحتهم على هذا الشرط واشترط عليهم ردّ السلب والاسرى والمهادنة لمائة سنة ووضعهم الرهاين من اكابرهم بين يديه ، فرضوا بذلك وصالحوه

(٥) لكنّه بعد قليل مات فتحرك النبط من جديد وخرقوا المعاهدة واستعادوا رهاينهم وعاثوا في البلاد كالأول

(٦) فباتتصار هؤلاء النبط تلاشت المسيحية من الصعيد وعادت الوثنية الى ما كانت من قبل سبعين سنة ، لابل ان البعض ممن كانوا قد تنصروا رجعوا يصلّون لايزيس وسيرايس

(٧) اما النوب ، مجاوري هؤلاء العربان ، فيظهر بأنهم كانوا ارقى منهم بالمدينة لاننا نجد كتابة رومية بلغة رديّة من هذا الزمان أم بعده قليلاً على جدار معبد طلّيس التي هي الآن قرية قلابشي ، تشير الى ان ملكهم سلخو قد حارب هؤلاء العربان اسلاف البشاريّة الحديثين مراراً عديدة واطاعته البلاد من طلّيس الى فريميس وكان يوصف بالمرّيح والاسد ومن اعظم ملوك الدنيا ، انما تلك البلاد كانت بتوالي الاضطراب المحيط بها قد تعطّات زراعتها بنصف مساحتها والرمال غطت غلى النصف الآخر منها مع ما فيه من المعابد

والاصنام كأنها تخفيها عن انظار لم تعد تعرف لها قدراً لتبقى عبرة
لقوم آخرين

ليو سنة ٤٥٧ م ٤٧٣

(٨) ولما مات مرقيان خلفه ليو وكان اول امبراطور قسطنطيني توَّجه
اسقف. فاغتم الاسكندريون فرصه غياب القائد ديونيسيوس بحرب
النبط واسقطوا بروتيروس من كرسي الاسقفية ونصبوا عوضاً عنه
الراهب تيموناوس العروس يعقوبي وبلغ ذلك ديونيسيوس فهرول
مسرعاً للاسكندرية لكنه لم يصلها حتى كان العصاة قتلوا بروتيروس
بصومعته وعلقوا جثته بالترافيلون ، ولأن الأعيان شاركوا الرعاع
بهذه الجناية خشي الامبراطور لثلاً تكون الحركة سياسية تحتاج
لتدبير سياسي فاستشار الاساقفة كي يمدّوه برأيهم لكنهم كانوا
كالمصريين لا يهمهم شيء سوى المذهب فآلحوا عليه بالتمسك بقرار
مجمع خالقيدونيا وعزل الاسقف يعقوبي فاضطر الى مطاوعتهم
واقام اسقفًا آخر اسمه ايضاً تيموتاوس الذي صار يعرف
بالامبراطوري

(٩) ثم انتقضت ليبيا عليه فأخضعها بقليل من الجند تحت قيادة
هيراقليوس ، الا انه لما كان على شطوط قرطاجنه ليسترد البلاد من
الوندال فقد عمارته كلها وبعد قليل تُوُفِّي

زينو سنة ٤٧٤ م الى ٤٩١

(١٠) ولما مات ليو سنة ٤٧٣ خَلَفَهُ حفيده ليو الأصغر لكنه بعد سنة مات هو ايضاً وخَلَفَهُ ابوه زينو وكان رجل لهُو ولعب فانتقضت عليه فئة بايعت باسيل صهر ليو الاول ومن المذهب اليعقوبي فاستولى على العاصمة بدون قتال ونفى منها زينو وردَّ الاسقف تيموتاوس العروس لكروسي الاسكندرية سنة ٤٧٧ والنفي قرار مجمع خلقيدونيا ، فلما عاد هذا الاسقف للاسكندرية دخلها كفاتح فاستبدَّ بالامر وعزل ونصب وقطع ووصل كما شاء واعاد لمدينة افسس مقامها البطريركي الذي كان مجمع خلقيدونيا حرّمها منه . لكن لسوء حظ المصريين لم تمضِ سنتان حتى تغلب زينو على باسيل وقتله

(١١) ثم عزل الاساقفة اليعقوبيين من كراسي مصر وجدد العمل بقرار مجمع خلقيدونيا اما تيموتاوس العروس فكان بهذا الاثناء قد توفي وخلفه بطرس منجوس فأبدله زينو بتيموتاوس الامبراطوري ليكون طوع يده ومراقباً سياسياً على المصريين

(١٢) الا ان لما كان مصدر المداخل الكنائسية هو الشعب جاز له الاعتراض على تأديتها لاسقف من غير مذهبه فبعث للقسطنطينية كاهناً اسمه يوحنا يسترحم الامبراطور بابدال الاسقف ، فوعده

الامبراطور انه سيفعل متى سنحت الفرصة وبعد قليل مات تيموتاوس وأراد الشعب يوحنا اسقفًا لكنَّ الامبراطور لم يرده فدعى للاسقفية بطرس منجوس مختار الرعية سالفًا واتفق معه على العمل بقرار مجمع نيقيا وترك اللدد بشأن قرار مجمع خلقيدونيا

(١٣) فهرب يوحنا الى روما كعادة سالفه يتظلم لأسقفها فيليكس فخطب هذا القسطنطينية بأمره وكان بطرس بهذا الاثناء قد تنص عهده مع الامبراطور وياشر باضطهاد الرهبان المتمسكين بقرار مجمع خلقيدونيا فبعث له الامبراطور حاجبه قوسماس ينصحه ان يعتدل ولما لم يرتدع بعث القائد ارسينوس فسحبه مقيداً للقسطنطينية ليحاكم (١٤) لكنّه بعد قليل مات فيها فتوفى المصريون لانتخاب اسقف وديع ذكي يُسمى اثناسيوس فضمّد جراحات الكنيسة بحلمه وراح الامبراطور من اخبار النزاع والشناعات لأجل المذهب

(١٥) وكان بهذا الزمان فيلسوف افلاطوني يُسمى هيروقليس وكانت الناس تقبل عليه لاستماع فصاحته التي لم يتعرض فيها للمسيحية قط فأراد الحاكم اكرامه على اعتناق هذا الدين لكنَّ الامبراطور أمر بالعمو عنه . والمؤلفات التي تركها لنا تشهد له بسمو الآداب وحسن الطوية

(١٦) والمظنون انه بهذا الأوان وجد ايضاً المنطقي تريفودوروس الاسكندري ناقل اوديسه اوميروس متكلفاً فيها عدم استعمال حرف السين اقتداءً بالمنطقي نسطور قبله الذي يقال بأنه نقل

الايذا متكاملاً فيها الاستغناء عن بعض حروف كالألف والباء وهو تكلف ان صَحَّ عديم الفائدة ومن عبث الامور (١٧) وبهذا الزمان صَنَّف العالم فلوطوس الصعيدي في ليقوبولي حكايته

الشعرية باختطاف هيلانه وهي حكاية عن ثلاث إلهات ، وينوس ويونو وهيلانه ، يتخاصمن أيهنَّ الأجل فيحكم بينهم فاريس خاطف هيلانه واخذها الى تروادا حيث كانت الحرب الشهيرة بسببها ، وهي حكاية من خرافات اليونان القديمة الا ان حكاية فلوطوس اكثر احتشاماً مما أتى قبلها اذ الحكم فيها لجمال الوجه فقط واكثر ما كان من تهتك وينوس امام الحكمم انها كتفت له عن ثديها (١٨) ولعدم وجود من يستحق الذكر من علماء المسيحيين بهذا الزمان نكتفي بذكر عوطاليس اسقف سولقة بالصعيد الذي خلف بعض ملاحظات على رسالات الحواري بولس اهداها للبطررك اثناسيوس وبعده بقليل جمع المنطقي حزقيوس قاموسه اليوناني الذي كان اوفى قاموس لذلك الوقت . ومن استعاراته لهُ بعض امثال من الانجيل يُستفاد بأنه كان مسيحياً

(١٩) ومن كتب هذا الزمان ايضاً كتاب طويل بالطب للنطاسي عيتيوس الاسكندري يصف فيه علاجات الاولين والآخرين حتى ما هو لتطرفة جمال المرأة ، وينقل عن الملك تَحَفُّسوس فائدة خاتم اليَصَب الأخضر لبعض العلل

أنستاس سنة ٤٩١ م الى ٥١٨

(٢٠) ولما آل الحكم الى انستاس جرى بسياسته على قدم سافه في مصر فان الاربعة الاساقفة الذين تداولوا كرسي الاسكندرية بزمانه كانوا يعقوبيين ، وهم يوحنا ويوحنا آخر وديوسقوروس وتيموتاوس حتى توهم المصريون بأنه من مذهبهم ، فأراح البلاد من المنازعات الدينية . اما اساقفة باقي المملكة فلم يكونوا راضين عن نفوذ يعقوبيين لابل ان المؤرخ الكنائسي يصف تلك الازمنة بأزمة الضلال والفتور بالدين . واسقف تونس يزعم بأن المصريين ابتأوا حينئذ بمرض تركهم ينبحون بالاسواق كالكلاب ولم يكن له دواء الا الرجوع لمذهب مجمع خلقيدونيا

(٢١) لكنه لم يتم له تنصيب الاسقف ديوسقوروس بدون مقاومة من الشعب بدعوى ان ارتسامه لم يكن على السنة الرسولية فاضطر حاكم الاسكندرية الى خفزه حتى أجلسه على كرسيه في كنيسة مارمرقص

(٢٢) ومع كل لطف هذا الامبراطور بالمصريين لم يقدر على إزالة كرههم للاغريق فكان آخر امبراطور بيزنطي ساسهم بالحكمة

(٢٣) وبالسنة العاشرة من هذا العهد اغار الفرس على المملكة فدخلوا سورية . وسنة ٥٠١ خيّم قائدهم قبّادس تحت اسوار الاسكندرية لكنها أعجزته فارتدّ عنها خائباً إنما لا تقطاع الطرقات بسبب دخول

الفرس البلاد انقطعت عنها واردات الطعام فصلت مجاعة بالمدينة
وفشى بسببها الوباء حتى ضجّ الناس بالعويل والبكاء فانبرى
لمواساتهم رجل غني من اليهود المتصرين اسمه اريبب واذا جاء احد
الفصح اخذ يوزع عليهم حسناته بكنيسة ارقاديوس لكنهم لشدة
حاجتهم وجوعهم كان ازدحامهم عليه عظيماً حتى مات منهم فيه
فوق الثامنة نسمة

(٢٤) ومن أثار هذا الزمان النفيسة نسخة بديعة الخط والتصوير من
كتاب ديوسقوريدس بالنباتات ونسخة بصفتها من سفر التكوين
كلتاها الان في مكتبة وينا (قينا) ايس لهما نظير
(٢٥) وابتشار المسيحية تعطلّت المراسح اليونانية القديمة وابدلت تلك
الطراغيزات الشعرية اللطيفة لاسقيوس وسوفول وعريديس
بسباقات الخيل ما خلا مراسح الاسكندرية التي ظلت مفتوحة لآخر
هذا العهد للالعاب والرقص

(٢٦) وكانت المنارة القائمة على جزيرة فاروس من عمل بطليموس الثاني
قد اهملت وكادت ان تحرب فأمر انستاس بالاعتناء بها وترميمها وهي
العلم الذي اهتمدى به الملاحون للمرفأ مدة سبعمائة سنة . وعن اسم
هذه الجزيرة نقل الفرنساويون اسم « فار » للمنارة بلغتهم

الفصل العاشر

يوسن الاول . يوستينيان . يوسن الثاني . طباريوس

موريقي . فوقاس . هيراقليوس

سنة ٥١٨ م الى ٦٤٠

يوسن الاول سنة ٥١٨ م الى ٥٢٧

(١) وخلفَ انستاس على كرسي القسطنطينية يوسن الأول بينما كانت
الفرس تشن الغارات على اطراف المملكة التي كانت قوتها من سنة
لسنة تقل وتضعف نظراً لضعف العنصر اليوناني بالقسم الشرقي منها
فان تجزئة المملكة بين اولاد قسطنطين كانت تليجتها تحويل العاصمة
من الاسكندرية لانطاكية . والآن اذ بدأ اليونان يهاجرون ايضاً من
انطاكية اخذت فئة من كنيسة سورية واسقفها سويروس باتباع
مذهب مصر اليعقوبي ولكن الجمهور انكر عليهم ذلك وتهدد الاسقف
بالقتل فهرب للاسكندرية ، انما بوصوله لها وجد بأنه لا يمكنه ان
يصادق على مذهب المصريين برمته ايضاً . فان مذهبهم كان بأن

يسوع لم يُصلب بل شُبّه للناظرين كما جاء فيما بعد بالقرآن ، ومذهبه لم يكن كذلك . ولنا من تصنيفه شروط العهد باللغة السريانية يستفاد منها وجوب مسح جسم الطفل بالزيت المقدس قبل تغطيسه بالماء ولحق به كثيرون من رهبان سورية ونزل اكثرهم بدير جبل نظرية فصارت كتبهم فيه عربية وسريانية ولم يبق للغة اليونان استعمال البتّة (٢) لكننا بالسنة الثانية من هذا العهداذ توفي الاسقف تيموتاوس ، نجد المصريين منقسمين الى فئتين فئة تقول بمذهب سويروس وفئة تقول بالزند . فأهل المذهب الأول انتخبوا غيانا اسقفًا عليهم واهل المذهب الثاني انتخبوا تيودوسيوس . وتجدد النزاع بينهم لعدة سنين فتارة يسود حزب وتارة يسود الآخر وكلما ساد فريق اجلى الخصم عن الاسكندرية

(٣) وكان الامبراطور السالف قد اجتهد ان يحرك عرب حمير اليهود اصحاب تجارة الهند والحبشة مع مصر ضد الفرس وانصارهم عرب اليمن فيوستن ارسل الآن لهم بعثًا ينشطهم على ذلك وكان رئيس وفده يوليانوس فاستقبله ملكهم الحارث بأوفر حمّاة واکرام وهو راكب عجلة تجرها اربعة افيال ، عاري الصدر والاكتاف وعليه ازار من الحرير الموشّى بالذهب وذراعه محليّان بالدمالج المجوهره ويديه مجنّ ورمحان واكابر دولته حوله بالعدّة الكاملة من السلاح وهم يردّون بحضورته اناشيد المديح . ولما ناوله الرسول كتاب الامبراطور

اخذته فقبل ختمه ثم عانق الرسول واستلم منه هدية يوستن ثم فضّ
الحتم وقرأ الكتاب وأجاب بقبول ما اقترح عليه من مقاومة الفرس
شمالاً وخفارة طريق التجارة مع الاسكندرية جنوباً

يوسنينيان سنة ٥٢٧ م الى ٥٦٦

(٤) ولما آل الحكم الى يوسنينيان دعى الاسقفين من الاسكندرية
للعاصمة ثم ابعدهما واقام بولس اسقفًا واحداً عوضهما ليعمل بقانون
مجمع خلقيدونيا . وبعد سنتين ابدله بالاسقف زويلوس ايضاً بالرغم
عن ارادة المصريين فاحتملوه ست سنين ثم طردوه وطردها كافة
اساقفة المذهب الاغريقي

(٥) واذا بلغ الامبراطور ما اجراه اليعقوبيون بعث ابوليناريوس اسقفًا
وحاكمًا على الاسكندرية فدخلها على رأس الجند بزيه العسكري
ولما وصل للكنيسة خلع ثوبه العسكري ولبس بدلته الاسقفية وباشر
تلاوة الصلاة لكنه لم يفتح فاه حتى اتاه الرجم من كل مكان
واضطر الى الفرار من الكنيسة فكث ثلاثة ايام ثم ارسل منادياً
بالاسواق يدعو الناس للكنيسة لاستماع قراءة كتاب الامبراطور
بالاحد المقبل فاجتمعوا واذا افتتح خطابه يتهددّهم بالقتل ، والنساء
بالسبي ، رجوه كالاول لكن باشارة منه دخلت الجنود الكنيسة
شارعة سيوفها فوقعت على القوم تضربهم بها حتى جرى الدم للركب

وانصرف منهم من سَلِمَ . وبعد ذلك لم يجتريء احد على مقاومة الاسقف الاغريقي الملكي وهذا كان اصل الروم الملكيين

(٦) ومن ثم استتب الامر للاساقفة الملكيين بصفة كهنة وولاة الا ان مصالحهم الملكيَّة كانت تشغلهم اكثر من الكنائسية لاسيما بتحصيل الاعشار والمتاجرة بها مع اوربا . وبعد زمان صار مدخول البطركية وزن الفي رطل مصري ذهباً او ثمانين الف ايرة انكليزية من عملتنا الآن اما اليعقوبيون فكان بطركهم من صنف الرهبان لا شاغل له عن الدعاء لام الله والحواري مرقص . واختلف الطقس الكنائسي بين الفريقين فالملكيون ثابروا على تلاوة الصلاة القديمة المنسوبة لمارمرقص زائدين عليها الشهادة بوحدة جوهر الاب والابن . واليعقوبيون صاروا يتلون الصلاة الجديدة المرتبة لهم من كيريل وباسيل القيصري وغريغوريوس النازينزي باللغة القبطية والشهادة بالطبيعة الواحدة الالهية كاتمين غيظهم من الاغريق وكما سمعوا من جيرانهم العرب عدم تعرض الفرس لمذهبهم وكنيستهم كلما ازدادوا كرهاً وبغضاً لولاهم

(٧) فاتبته الامبراطور اخيراً لهذا الحيف وشعر بضعف مملكته والخطر الذي يهدده من جهة الفرس فأعرض عن الجور على اليعقوبيين لا بل انه اعتنق مذهبهم ومذهب العرب جيرانهم رغبة في اكتساب ولائهم

(٨) اما الفرس فبعد استيلائهم على سورية وانطاكية دخلوا حجر عاصمة النبط فأمر يوستينيان ببناء حصن بالقرب من جبل سينا . وبالسنة الثلاثين من ملكه تم البناء فشحنه بالرهبان على نفقة الخزينة . ثم وجده منكشفاً من تلٍّ اعلى بالجبل فغضب على بانيه وقتله وبني قلعة اصغر على ذاك التل . ومن كتابة الرهبان الباقية على جدران هذه القلعة يستفاد منها اعتقادهم بأن هذا التل هو المكان الذي فيه وقف موسى الكايم وانزلت الوصايا العشر

(٩) وبالقرب من هذا الزمان كان ايضاً بنيان ديرين اشبه بالحصون على نحو عشرين ميلاً من البحر الاحمر وثمانين جنوباً من اسوان لا ابواب لهما ، الا ان جدرانها كانت من الابن . وكان احدهما على اسم مار انطونيوس والآخر على اسم مار بولس اول النساك المسيحيين . ومن ذاك الوقت الى يومنا هذا لم تخلُ هذه الديرية من الرهبان والمقهرهم وسلامة طويتهم لم يتحرش بهم باغٍ بينما حصون الظلم والعدوان من حولهم قد دكها الغزاة دكاً وابدوا اهلها

(١٠) ولذلك العصر كانت تجارة الشرق الاقصى والصين مع مصر تمر بجزائر سيلان وسوقطرا ليد عرب وزنوج اميين لا يستفاد منهم شيء عن تلك البلاد فظل الافرنج زماناً يظنون بأن مصادر تلك الاموال من الحرير وغيره هي بلاد العرب اما سيلان فكان فيها كنيسة للسريان من رعايا مملكة فارس . والعملة الجارية فيها كانت رومانية . فهذا

الزمان زادت حركة التجارة معها، بعد ان ملك الحبشة حداد اليهودي كان قد زحف ضد يهود حير وقتل ملكهم داميانوس (١) لما كان يصدر منه من التعدي على قوافل التجار. ثم قام بخفارة الطرقات وطلب من الامبراطور ان يبعث له مرشدين للدين المسيحي فبعث له الراهب يوحنا رجلاً صالحاً ذكياً، الذي صار فيما بعد اسقفاً لعدولا وربما ان هذا الانتصار هو المنوّه عنه بكتابة على قاعدة من الرخام قرأها التاجر قوسماس الاسكندري تقول بأن الملك جاز البحر الاحمر ووضع الجزية على العرب والصابئين وأذل قبائل الشمال وفتح الطريق لمصر وقهر الافريقيين شرقاً على شطوط ارض البخور ومرتجاً بجبال الثلج التي تخرج منها احدى شعب النيل، وهذا اول خبر سمعناه عن وجود الثلج بالقرب من خط الاستواء. اما اسم الملك فلم يعرف لانه كان مقطوعاً منها

(١١) فالآن ارسل يوستينيان بعثاً لحير وبعثاً آخر للحبشة فدخل رسوله اولاً عدولا على طرف بلاد الزنج البحري ومنها صعد بخمسة عشر يوماً الى عاصمة البلاد اخضم. وشاهد بطريقه قطعاً من الفيلة يحسب انها كانت تزيد عن خمسة آلاف رأس وبعد تأدية رسالته قطع

(١) لمله ذونواس

البحر الى ملك حمير قيس حفيد الحارث الذي كان يوستن
راسله قبلاً

(١٢) وبعد هذا الزمان انتقض الحميريون على الحبشة فجرد ملك الحبشة
جيشه ضدهم وأقام عليهم ملكاً مسيحياً اسمه غطيفافوس
الذي استدعى الاسقف غريغنتوس ليرشدهم للمسيحية فكانوا
يجادلونه ويعترضون على التثليث الى انهم اتفقوا على مجادلة عليّة
تكون بباطل الملك بين الاسقف والحاخام هرمان . والمؤرخ الكنائسي
يقول بأن لما هرمان أنكر التثليث ضربه الله مع رفقائه اليهود بالعمى
لكنهم بدعاء الاسقف عاد لهم بصرهم وتنصروا عن آخرهم
وهم وقوف

(١٣) ثم انهم بعد قليل انتقضوا على غطيفافوس فبعث ملك الحبشة
جيشاً ليخضعهم لكن لما وصل الجيش اليهم استمالوه بهداياهم وتلفظهم
فأبى محاربتهم وآخاهم، فاضطرّ الملك الى مصالحتهم، ويستفاد من كتابة
رومية على حجر في اخمص بأن بعد هذا الملك وجد ملك يُسمى
الجانس تقول الكتابة بأنه المرنخ ملك الملوك سيد الحبشة والننج
والصاينين وارض حمير وقاهر البجاة سكان الشمال بين اخمص ومصر
(١٤) وكانت اخمص مزدانة بالعمد وفيها مسلات كمسلات مصر ولم
تزل منها واحدة طو لها ستون قدماً قائمة فيها، لكنها لا كتابة عليها.
ومن يهود الحبشة وصل اليها كتاب اخنوخ الذي اكتسب وقاراً من

استشهاد الحواري هود به والافانه كتاب مزور بعضه منقول من التوراة وبعضه ملفق من قصص الميلاد يوهم بأنه يخبر بالحوادث قبل وقوعها والامر بخلاف ذلك

(١٥) وبهذا الزمان اعتل توريد الخراج من مصر للقسطنطينية من طمع الحكام والموظفين فرأى الامبراطور ان يجعل الحكام والاساقفة المسؤولين بتصدير ثمانمائة الف اردب سنوياً لعاصمته كان مصروف جمعها وتوريدها يبلغ ثمانين الف صولدي او ستين الف ليرة من عملتنا الدارجة

(١٦) ذاك كان حد ما اتاه هذا الشارع البارع من الاصلاحات التي لا فائدة منها للمصريين. لا بل ان رجلاً طامعاً بالاسكندرية يسمى باحتكار كان قد اكتسب مودته ونال منه امتيازات سمحت له حيفاستوس مؤن البلاد فكان يشاطره بالارباح منها ويجور على الفقراء بينما العربان تسطوا على بعض املاكه بالصعيد والرمال تعطي البعض الآخر واللغة صارت هناك اكثرها عربية

(١٧) ولهذا الزمان كانت جزائر بريطانيا تحتبط من تعدي النكسون عليها، والرومان لا يهتمون لها لبعدها عنهم وضعفهم عن حمايتها. اما تجار الاسكندرية فكانوا اذا جاء الصيف يقدون اليها براكبهم وغلاهم للمقاوضة بقصديرها وفضتها فيبيعون كيلة القمح بما يوازي عشرة بنسات من عملتنا الحاضرة. وهكذا كان الفينيقيون يفعلون

قبلهم بثمانمائة سنة وأكثر ومع ذلك لذلك الوقت لم يخطر للبريطانيين ان يتعلموا طريقة الاسفار البعيدة بمراكبهم . وهذا السفر كان اطول سفر تلك الايام وأبعد من السفر من البحر الاحمر لسيلان لكنه ربما استغرق عشرين يوماً فقط اذا ساعده الهواء والأفأشهرأ . ولا شك بأن قدوم هؤلاء التجار لشطوط بريطانيا قد أفاد برابرتها مباديء التمدن وهيأهم له

(١٨) ولما ألقى الامبراطور مسؤولية الخراج على الحكام والاساقفة والموظفين معهم وكانت الفقراء أحياناً تسطوا على انبار الخنطة وتنهبا اضطر حاكم الاسكندرية الى تحصين انبار الخراج بالفياله فبنى حولها سوراً منيعاً واصلاح القنطرة المؤدية لقريه حيروم ونقل داره الى مسافة يوم غربي الاسكندرية احتياطاً من ثورات المصريين

(١٩) ثم ان يوستينيان امر بأن لا تُستأنف دعوى للعاصمة قيمتها تحت عشرة ارطال ذهب اي خمسمائة ليرة انكليزية ، وحرّم على من بقي بالاسكندرية من علماء الفلاسفة ان يخطبوا فيها، فهاجر منهم كثيرون الى سورية حيث الفرس اكرموا مثواهم لا بل انهم فيما بعد لما عقدوا شروط الصلح معه اشترطوا عليه قبول هؤلاء العلماء بالاسكندرية وعدم التحرش بهم

(٢٠) ولذلك الزمان كان يظن بأن ارض مصر لا تعرف الزلازل، لكن المؤرخ اغاتيا البيزنطي الذي كان بالاسكندرية ليلم دروسه فيها

بعد درسه الفقه في بيروت يخبرنا بأنه بوجوده بالاسكندرية اشعروا
بزلزلة وتركوا بيوتهم خوفاً من سقوطها عليهم وان لم يسقط منها شيء
(٢١) ومن بدع هذا الزمان كان ما ذهب اليه الراهب تيمستوس من
انكار العصمة من الخطأ ليسوع ، وما ذهب اليه الراهب تيودوروس
من انكار بشريته . وكان قوسماس التاجر المذكور آنفاً قد ترهب
أيضاً وصار يقول بأن البحث بنص الكتاب المقدس حرام ، وقول
علماء الهيئة بأن الأرض كرة هو كفر بنص التوراة الذي يقول
بأنها مبسوطة

(٢٢) وبأول الامر كنا نرى المسيحية تستند على الفلسفة لثقوية دعائم
الايان . لا بل انها كانت شريكها بالعلوم وسيدتها بالآداب . لكن
اذ عقب ذلك اضطهاد خمسين سنة من عهد ديقوس الى ديوقليتيان
وتكاثرت عدد المنتسبين لهذا الدين صار احق الرهبان يستهزيء بآراء
قلامنس واوريجين ويلعنهما . ولكره هذا الجمهور اسم العلماء صار
يكره حتى العلوم نفسها

(٢٣) وبالسنين الاخيرة من اسقفية ابوليناريوس لم يكن له ادنى اعتبار
عند الاغناطيين ولا اليهودوسيين ولا اليعقوبيين فاعتزلوا كلهم عن
كنيسته ثم اذ مات أحد الاساقفة وأراد أبوليناريوس إقامة أسقفًا
عوضه لا يرضي الاغناطيين تنفوا الحية أحدرهبانه بأسواق الاسكندرية
ثم بعد قليل مات أبوليناريوس وأقام الامبراطور الاسقف يوحنا

خَلْفًا لَهُ ، فالقبط لم يستعرفوه واليونان اتهموه بالمانوية . وبعد ثلاث سنين مات فانتخب القبط بطرس اليعقوبي بطرکاً لم ترضه الاغريق . وبالسنة التي مات فيها يوستينيان مات بطرس ايضاً

(٢٤) وكانت نقود مصر من عهد ديوقانيان قد صارت كلها ساطانية . اما نقود يوستينيان فكان منها ما عليه اسم الاسكندرية بالحرف الاغريقي وصورة الامبراطور وبارائها علامة الصليب ، ووزنها كان غير اوزان نقود القسطنطينية . فان نقود القسطنطينية كانت من ٥ و ١٠ و ٢٠ و ٣٠ و ٤٠ درهماً معبر عنها بالحروف الابجدية ه ي ك ل م اي M A K I E أما نقود الاسكندرية فكانت أولاً بوزن اثني عشر درهماً معبر عنها بالحروف ب ي اي B ثم صارت بوزن ثلاثة وثلاثين درهماً معبراً عنها بالحروف ل ج أي ٨ ٢ ولما بالمداولة خف وزن الاولى صارت الثلاثة منها تصرف بوحدة من الاخيرة . وأظن ان الدرهم عندهم كان وزن اثني عشرة حبة خرنوب

يوستن الثاني سنة ٥٦٦ م الى ٥٧٨

(٢٥) في عهد مرقيان كانت جزيرة فيله وفيها معبد ايزيس ملجأ وثنيين . ذاك الزمان اما في عهد يوستن الثاني ، يظهر من كتابة وجدت فيها أخيراً ، بأنها صارت أسقفية ومعبدها صار كنيسة وحكم هذا الامبراطور

اثني عشرة سنة لا شيء فيها مما يذكر عن أحوال مصر ولا بالأربع
السنين بعدها من حكم طييار يوس

موريتي سنة ٥٨٢ م الى ٦٠٢

وكسرى

(٢٦) ثم آل الحكم الى موريتي زوج ابنة طييار يوس . وبالعشرين سنة
التي حكم فيها كانت المملكة على نوع ما مطمئنة لانشغال أخصامها
الفرس بحركاتهم الداخلية الى أن أسقطوا ملكهم كسرى حفيد
كسرى انوشروان فهرب منهم ملتجئاً بموريتي وراجياً منه أن يمدّه
برجاله وماله ضد أعدائه فأحبه موريتي ورثى لحاله وأمدّه بما طلب
فسار نحو بلاده واستعاد كرسيه وعزّه فزوجه موريتي ابنته وظل
عنده بمعزة ولد الى ان مات

(٢٧) وبهذا الزمان أنشأ هولوجيوس أسقف الاسكندرية نزلاً للفقراء
واشتهر الراهب أنستاس من دير جبل سيناء بعلم اللاهوت وألف
الناسك يوحنا قايماقوس في وادي طلى على سفح الجبل المذكور
كتابه بفضل العيشة الرهبانية الذي سماه أدراج النعيم وقسمه الى
ثلاثين درجة كمدد الثلاثين سنة الاولى من سني يسوع

(٢٨) انما الاعظم شهرة من رجال تلك الايام كان المنطقي يوحنا الفيلسوف
الارسطوطاليسي ولكنه لقوله بأن الآلهة هي ثلاثة خرج عن الكنييسة

(٢٩) وهذا هو يوحنا الذي عرفه عمرو بن العاص فاتح مصر فيما بعد واكرمه
 وآخر أيام موريقي ألف تيوفيلاقطوس سيموقطا كتابه بحياة هذا
 الامبراطور وحروبه مع الفرس يقول فيه بأن الليلة التي مات فيها
 بالقسطنطينية سقطت أنصاب الاسكندرية من قواعدها وان انساناً
 نصفه حيوان خرج قبيل ذلك من النيل وأخبر بقرب أجله
 (٣٠) وبينما كان المشرق يحيم عليه ظلام هذا الجهل بزغت شمس الهدى
 والعرفان في اقليم انكلترا المسعى الآن كُنتْ بقدم الراهب الروماني
 اغوسطين مبشراً بالمسيحية فيها، وأنورت مكة بالهلل المحمدي

فوقاس سنة ٦٠٢ م الى ٦١٠

(٣١) ثم انتفض الجند بالقسطنطينية على موريقي، وأحدهم فوقاس توصل
 الى قتله فرفعه الجند لكرسي المملكة. لكن اذ بلغ كسرى قتل
 حبه كراً بجيشه للانتقام من قاتليه فاخترق البر الى ان خيم تحت
 أسوار القسطنطينية، ولما لم يقدر على فتحها ظل محاصراً لها مدة هذا
 الحكم كلها فتضايق أهلها لانقطاع المؤن عنهم وضجروا من استبداد
 فوقاس بهم. وبالسنة السابعة من ملكه خلعت الاسكندرية طاعته
 وبايعت هيراقليوس ابن حاكم القبروان امبراطوراً وقتل البطرك بالحركة
 فيها. وبعد قليل دخل هيراقليوس بأسطوله مياه القسطنطينية واستولى
 عليها فقتل فوقاس وأخذ كرسيه

هيراقلْيوس سنة ٦١٠ م الى ٦٤٦ والفِرس

(٣٢) وبالتِلاث السنين الاولى من حِكم هيراقلْيوس كان اسقف الاسكندرية تيودوروس . ثم انه مات فأقام الامبراطور عوضه الأسقف يوحنا ابن حاكم قبرس برضى المصريين ، فأصاب لأن هذا الأسقف أبدى من الاحسان والرأفة بالفقراء ما اكسبه لقب المحسن . وبِدة الحِمس السنين الاولى من اسقفِيته بنى عدة مستشفيات للمرضى وتوايد النساء ونَزَلَ للباثسين . وكان مذهبه بالمسيح انه لم يُصاب بل تُبَّه لهم

(٣٣) أما الفِرس فانهم بِقدوم هيراقلْيوس للقِسطنطينية رحلوا عنها وانتشروا بأَملاكها الشرقية الى حدود مصر . فكانت تهرب من وجههم السكان الى الاسكندرية حتى ضاقت المدينة بالفقراء والمسلوبين واضطر البطرك يوحنا الى مساعدتهم فأفق عليهم من خزينته قيمة ثمانمائة الف ليرة من عملتنا الدارجة الآن واستدان فوقها مبلغاً آخر لسد احتياجات هؤلاء المساكين ، ولسوء حظهم لم يفر النيل بتلك السنة فأمحلت البلاد وقَلَّت الأَطعمة وتسربت اليايدي . وبالسنة الخامسة من هذا العهد فتح الفِرس اورشليم وبالثامنة فتحوا الاسكندرية واشتروا منها ما كان فيها من حبوب الخراج بثمن بخس جداً . ومن ذاك الحين انقطع خراج مصر عن القِسطنطينية

(٣٤) وكان حاكم مصر نيقيطا يرى أن لا قدرة له ولا مدد من القسطنطينية لرد الفرس فهرب لقبرس والبطرك يوحنا معه . وهكذا لما وصل الفرس للاسكندرية دخلوها بدون قتال لا بل بالترحاب من القبط الذين كان اول اهتمامهم انتخاب اسقف يعقوبي يُسمّى بيامين بدون تحرش من الفاتحين ولا حرج

(٣٥) وبهذا الزمان حضر للاسكندرية الأسقف السوري توما ليصحح ترجمة العهد الجديد السريانية على الاصل الاغريقي الذي كان في دير مار انطونيوس ، وتصحيحه هذا صار المعول عليه فيما بعد . اما الترجمة الموجودة الآن في دير الرهبان الاغسطويين في روما فهي من عهد هيراقلوس . وبهذا الوقت كان العالم السوري بولس من طلي بدير مار زاخوس بالاسكندرية يعتنى بترجمة التوراة من النسخة السبعينية الاغريقية . وفيه شاع ذكر النطاسي هارون السوري الذي صار فيما بعد قدوة اطباء العرب . وازداد بهذا الزمان توارد الرهبان السوريين لا سيما من شرقي الفرات الى جبل نظرون ولم ينقطع لقرون عديدة

(٣٦) ولما كانت السنة العاشرة من احتلال الفرس ارض مصر انتقض عليهم انصارهم العرب والسوريون الذين سهُلّوا لهم اولاً هذا الاحتلال نظراً لما بينهم وبين المصريين من الإخاء فاغنم هيراقلوس

فرصة هذا الانقسام وزحف ضدهم فأجلاهم بوقت قصير عن سورية
ومصر وهرب البطرك اليعقوبي معهم

(٣٧) وبالسنة الثانية عشرة من حكم هيراقليوس وهي سنة ٦٢٢ م
هرب محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ، داعي العرب للإسلام ، من
اعدائه القرنيين بمكة الى المدينة في ليلة الجمعة سادس عشر شهر
جولاي الذي صارت تُورَّخ منه فيما بعد سنو الهجرة . وبعد ذلك
رأى هيراقليوس اتحاد العرب واتفاقهم على النبوة فكان يجاملهم
ويكرمهم بهداياه الى أن قبض النبي فقطع علاقته معهم

العرب والخلافة سنة ٦٣٢ م و ١١ هجرية

(٣٨) وبُويع لأبي بكر بالخلافة بالمدينة في شهر ربيع الأول في اول
سنة احدى عشرة هجرية يوم تُوفي النبي . قال عُمر أن أبا بكر كانت
يبعته فلتة وفي الله من شرّها فمن عاد الى مثلها فاقتلوه فأبى رجل
بايع رجلاً من غير مشورة من المسامين فليقتل الرجلان . وقيل لما بلغ
ذلك علي بن ابي طالب لم ينكره . واكثر ما روي أنه قال ، ما شاورتني
فأجابني ابو بكر ، ما أسمع الوقت للمشورة وإنا خفنا ان يخرج الامرنا
ثم صعد المنبر فقال أفيكوني من هذا الامر فاست بخيركم . فقال علي
لا تقبلك ولا نستقبلك ، فأجمع الانصار والمهاجرون على خلافته التي
بايعه عليها اولاً عُمر فقط

(٣٩) ولما ذاع خبر وفاة النبي ارتد خلق كثير من العرب ومنعوا الزكاة واشتد رعب المسلمين بالمدينة لاطباقهم على الردّة فأووا الذراري والعيال الى الشعاب ، فأمر ابو بكر خالد ابن الوليد على الناس وبعثه في اربعة آلاف وخمسمائة من الرجال فسار حتى وافى المرتدّة وناوشهم القتال وسبى ذراريهم واقسم اموالهم . ثم ارسله ضد مسيلمة باليمامة لادّعائه النبوة فخاربه ورماه عبد اسود اسمه وحشيّ بحربة وقعت على خاصرته فسقط عن فرسه قتيلاً . ومن هناك توجه خالد الى ارض العراق وفتح الحيرة صلحاً . ومسيلمة المذكور هو الملقب بالكذاب

(٤٠) وكان ابو بكر قد وجه قبل ذلك ابا عبيدة بن الجراح في زهاء عشرين الف رجل الى الشام . وبلغ هيراقليوس ورود العرب ارض الشام فوجه اليهم البطريق سرجيس في خمسة آلاف رجل لمحاربتهم . وكتب ابو بكر الى خالد عند افتتاحه الحيرة بأمره ان يسير الى أي عبدة بالشام ففعل والتقى العرب والروم فانهزم الروم

عمر بن الخطاب سنة ١٣ هـ الى ٢٣

(٤١) قيل ان ابا بكر لما دنا اجله قال لعثمان بن عفان كاتبه ، اكتب بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما عهد عبد الله بن ابي قحافة وهو في آخر ساعات الدنيا وبأوّل ساعات الآخرة ، ثم غمي عليه ، فكتب عثمان

« الى عُمر بن الخطاب » . فلما أفاق قال ، من كتبت ؟ قال عُمر قال قد اصببت ما في نفسي ولو كتبت نفسك لكتبت اهلاً له وأجمعوا على ذلك ودعوه خليفة خليفة الرسول ، ثم قالوا هذا يطول فسُيَ امير المؤمنين

(٤٢) وفي زمان خلافته كان فتح العراق وسقوط ملك العجم وفتح دمشق واورشليم ومصر . واذ بلغ مصر ان العرب يقصدونها هرب بطرك الاسكندرية جرجس بجرأ واقام الامبراطور عوضاً عنه الاسقف قيروس الماروني الذي كان على مذهبه بالقول بالطبعيتين والمشيئة الواحدة خلافاً لمذهب الملكيين القائلين بالطبعيتين والمشيئتين ولمذهب اليعقوبيين القائلين بالطبيعة والمشيئة الواحدة . فازداد هؤلاء نفوراً من الاغريق وكرهاً لهم وهكذا لما دخل عمرو ابن العاص ارض مصر وجدهم من انصاره ضد الروم . اما الاسكندرية فكان فتحها في الثاني والعشرين من شهر ديسمبر سنة ٦٤٠ م وغرة محرم سنة ٢٠ هجرية

(٤٣) ولما شاهد عمرو مدينة الاسكندرية عجب من عظمتها فكتب الى امير المؤمنين عُمر يقول اني فتحت مدينة مصر العظمى ووجدت فيها اربعة آلاف قصر ومثلها حمامات واربعائة مرسح واثني عشر الف حانوت واربعين الف يهودي يدفعون الجزية واني باعث اليك ما طلبته مني من الطعام احمالاً يكون اولها عندك وآخرها عندي

- (٤٤) وكانت شروط عمرو مع المقوقس زعيم القبط على ان تكون للقبط الحرية المطلقة بدينهم وعليهم جزية ذهبين عن كل رجل . فقول المؤرخ العربي ان الجزية جمعت ثمانية آلاف الف ذهب فيه إما مبالغة واما جور من عمرو مما اشتهر عنه من الرفق بالمصريين لانه من المحقق بأن ذاك الشعب برمته من صغير وكبير رجالاً ونساءً لم يكن حينئذ يفوق اربعة آلاف الف نسمة
- (٤٥) وقد لاقى عمرو بفشحه الاسكندرية تعباً جماً ومقاومة عنيدة من الروم ، وليس كما يزعم ابو الفرج بأنه فتحها صلحاً
- (٤٦) فالاسكندرية رغمًا عن انحطاطها عما كانت بأوان عزّها فانها بعين هؤلاء العربان كانت تُرى ولا بد بغاية الجمال والكمال . فان الناظر اليها من البحر كان يرى تلك المنارة على جزيرة فارو وهي اول منارة عرفها الناس واستفادوا بها . ثم يرى السد الذي يصلها بالبر على ثلاثة ارباع الميل وتحته القناطر لمروور المراكب الصغيرة من مرفأٍ لآخر . اما قناة الماء العذب التي كانت فوقه فانها كانت قد تعطلت . ثم بنزوله للبركان يدخلها من باب الشمس . وبعيداً منه يرى باب القمر وبينهما طريق واسع مستقيم مزان بالعمد وفيه ضريح الاسكندر وطريقاً آخر يعارض هذا ذاهباً شرقاً وغرباً من الباب القانوني الى باب المقابر الذي لم يكن باقٍ من عمُد زينتة الا القليل . اما الموزيوم الجديد فكان قد اقفر من الطلبة . ومدرسة الفلسفة المسيحية

قد مُجى اثرها . وخارج الباب الغربي كانت ترى المقابر القديمة والمسيحية الجميلة المنظر . اما مقبرة اليهود فكانت حقيرة وخارج الباب الشرقي . وكان يرى بالقرب من الباب الغربي داخل السور معبد سيرايس البديع الذي لم يبقه جالاً غير قابيتول روما ، وقد صار الكنيسة الكاتدرائية وفي ساحته العمود الشامخ حاملاً تمثال ديوقليتيان على فرس . وتليه كنيسة كانت قديماً معبد قيصر او السباسته امامها مسلمان من عمل ثيه اتى بهما الرومان الاولون وبقينا لزيانة كنيسة مسيحية . وكانت بالمدينة كنائس اخرى اعظمها كنيسة مار مرقص ، والسيدة ، ويوحنا المعمدان ، وتيودوسيوس وارقاديس ، وباخوس ، وكان الميدان على الشاطيء الشرقي قد صار خراباً ، ومن تلك الجهة كانت ترعة النيل تأتي المدينة لشربها وعلى هذا الشاطيء كانت مخازن الخراج المحصنة وغير بعيد منها كانت الثكنة القديمة وفيها بقايا اعمدة كان اغسطوس احضرها لبناء مدينة نيقوبوليس . وكان البروخيوم الحصن القديم والشبيه بمدينة قد اصبح خراباً ، وحارة اليهود لم يبق فيها غير فقراء يدفعون الجزية (٤٧) الا ان هذا الانحطاط لم يكن شيئاً ازاء ما جلبه تسلط البدو على هذه المدينة . وما كلهم غمر ولا عمرو . فانهم اولاً ضيقوا مجالها عما كان ، تاركين عمود ديوقليتيان خارجاً عن السور الجديد وبعد ذلك اكتفوا منها بالسد فقط نظراً لقلّة سكانها . ولم يبق من مزارع مصر

سوى ثلاثة آلاف الف فدان او الثلث مما كانت اوان عزّها
 (٤٨) اما مكتبتها الشهيرة فان التي جمعها البطالسة بالموزيوم في
 البروخيوم كانت قد احترقت بحصار يوليوس قيصر فيه . والتي
 أهداها مارق انطوني لقللوفطرا وكانت في معبد سيرايس لعهد
 يوليان قد انتهت من المسيحيين بعهد تيودوسيوس . لأن المؤرخ
 اوروسيوس الذي زار معبد سيرايس بهذا العهد يقول بأنه لم يجد
 فيه حينئذ كتاباً . لكن لا بد من أن يكون لمعبد قيصر والموزيوم
 القلودياني من مكتبة لأننا نرى علماء الوثنيين لعهد يوستينيان
 والمسيحيين بعده مشغولين بالتدريس والتصنيف الذين لا بدّ لهم من
 المكاتب . انما قول عبد اللطيف بأن احراق هذه الكتب بأمر
 امير المؤمنين عمر قد كفى حمامات الاسكندرية ستة اشهر ففيه
 ولا شك مبالغة ، وربما ان الصحيح هو ان وقدها تدريجاً هو الذي
 اخذ هذه المدة الطويلة . اما اصل الحكاية فهو ان يوحنا المنطقي
 سأل عمرو بن العاص ان يسمح له بهذه الكتب اذ لا حاجة للعرب
 بها . فاستشار عمرو امير المؤمنين بأمرها فأجابه ان يحرقها لأنها ان
 كانت تطاوع القرآن ففيه غنى عنها وان كانت تناقضه فاعدامها
 واجب وهي شئنة قد عرفناها من بعض المسيحيين قبله لا سيما
 وانها تخالف نص القرآن وقوله ، سبحانه من علّم بالقلم علّم الانسان
 ما لا يعلم .

(٤٩) ومن هذا الزمان تحولت لغة مصر للعربية وخرجت الاسكندرية من نطاق اروبا ودخلت بحكم الخلفاء وتاريخهم . وخط العرب مدينة جديدة على انقاض مدينة بابل بين منف وهليوبوليس وسموها الفسطاط . وبعد زمان بنوا مدينة اخرى اقرب الى هليوبوليس وسموها القاهرة . وزينوها بالمساجد والمآذن من انقاض الاسكندرية ومنف وهليوبوليس حتى اننا نجد البعض من بلاطها ، واصحابها من اقدس البلاطات الوثنية ، تداس الآن بالارجل

(٥٠) وبالتدريج تزايد عدد المهاجرين لمصر من عرب وسوريين ، الا ان القسم الاكبر منهم قطن المدن وقليل ما اختلطوا بالفلاحين نسل قبائل الغالة من افريقيا الشرقية الذين اساموا . أما القبط فما برحوا على دينهم المسيحي وحرقهم الصناعة والتجارة . وبين سلسيليس والشلال الثاني نرى النوب سليمة النبط الذين حاربوا ديوقليتيان ومنهم كانت ملوك ثيبه وما وراها . وهم والقبط كانوا اولئك الذين شادوا المعابد الضخمة وحنطوا موتاهم وكتبوا بالخط المصري القديم ، وكانوا وقتها ما كلهم مسيحيين . وشرقي النيل بالقرب من القصير وايي سنبل الى مروي نرى عرب العبادة اصحاب الجمال كما كانوا في عهد رمسيس . وبالصحراء بين السودان والبحر الاحمر جنوب اسوان نرى عرب البشارية نسل اولئك العربان الذين على

زعم الاغريق كانت عيونهم في صدورهم . ونرى بالحبشة سليلة اولئك اليهود المهاجرين من ايله ، وهي الآن عقبه ، ربما من قبل زمان سليمان وهم للآن اقرب شبهاً بهيتهم ولغتهم لليهود من العرب . وجهة سينا نرى عرب الطور سليلة قادة موسى الى عزرون جبر على خليج ايله . وبالقرب منهم عرب العلوين سليلة الادوميين اخصامه اصحاب حجر ، وهي ثمود القرآن

(٥١) وما زالت مصر من ذاك الزمان تسعد تارةً وتشقى اخرى ، ومرسجاً تلعب فيه اغراض الرجال بدولة الاسلام الى ان صارت ولاية عثمانية ، ثم حكومة خديوية لا تأثير لها على المذاهب المسيحية لا سيما وان القبط لما انقطعت مصاهرتهم للروم والعرب المسيحيين ضعفت ذريتهم وقل عددهم .

(٥٢) ثم عندما شاع استعمال البخار لتسيير المراكب الثقيلة وتحولت الافكار لايجاد اقرب الطرق لمواصلات اوربا مع الشرق الاقصى ، عرض المهندس ده ليسبس^(١) على الخديوي اسمعيل حفر ترعة لهذه المراكب بين البحر المتوسط والبحر الاحمر واطهر له فوائدها لمملكته ، فقبل رأيه وساعده على انشائها شركة تجارية . وتيسر له فتحها بايامه السعيدة سنة ١٨٦٩ م في السابع عشر من شهر نوفمبر باحتفال

(١) الذي كان ايضاً القنصل الفرنسي بالقاهرة وصار يعرف فيما بعد بالكونت ده ليسبس

عظيم حضرته الامبراطورة اوجني ، وصارت هذه الطريق تدعى
 ترعة السويس . وكان اسمعيل هماماً مقداماً كريماً الا انه قصير النظر
 بالعواقب ، والكريم يُخدع ، فخدعه رجال احاطوا به لمكاسبهم وورطوه
 بالنفقة الفارغة فاستدان ولما عجز عن الوفاء سلّم خزينته لاهل الدين
 من انكليز وفرنسيين . ولأنه خالف رأيهم بعزله وزيره القبطي نوبار
 باشا تنفّر منه الانكليز ، وكانوا قد اشتروا منه ، برأى وزيرهم لورد
 بيكونسفيلد ، حصته من اسهام شركة التركة فحملوا السلطان على خلعه
 سنة ١٨٧٩ خلفه ابنه توفيق الطيب الذكر ، لكنه بعد قليل تلبّك
 امره من عصيان عرابي باشا وزير حريمته الراغب في الغاء المراقبة المالية
 بتحريك من السلطان عبد الحميد سنة ١٨٨٢ . فاتفق الانكليز
 والفرنسيين على اسقاطه فاعجزهم ، وجيش المصريين لمقاومتهم . واذا
 كانت مراكب الانكليز بالطريق للاسكندرية لعبت السياسة
 بالافرنسيين فانسحبوا وتركوا الانكليز وحدهم لسد هذا الخرق
 فدخل الجنرال سارجارنت ولسلي الاسكندرية باربعين الف مقاتل
 ولاقى عرابي في التل الكبير وهزمه ثم قبض عليه في القاهرة ونفاه سنة
 ١٨٨٣ بأمر دولة الانكليز الى جزيرة سيلان حتى سنة ١٩٠١ التي
 أفرج عنه فيها . وعُيّن له معاش بالقاهرة من ستمائة جنيه بالسنة الى
 ان مات

(٥٣) وبهذا الاثناء كان توفيق قد تُوفي وخلفه ابنه الشاب عباس ، اذ

النائب الانكليزي بالقاهرة، الماجور اولن بارنج الذي كان اصلاً احد المراقبين الماليين وصار فيما بعد لورد كرومر. فخدائته سن الخديوي القت على عاتق هذا السكهل حملاً ثقيلاً بادارة البلاد ذمةً اصحابها وسياسة للصالح العام. فأهَّن البلاد وأجرى العدل واصلح المالية. ورأى من عباس جهلاً بهذه الخدمات وميلاً للاستبداد برأيه فاستعمل معه قساوةً القته بعصية الاستقلال. وكان الانكليز قد احتلوا السودان، قاتلة رجاهم الصديق غوردون. فلبثوا يراقبون الخديوي عباس الى ان لما ابتدأت الحرب العظمى سنة ١٩١٤ وهو بالاستانة لم يأمنوا من عودته لمصر ورأوه يتناجى مع اخصامهم فأسقطوه من امارته وبايعوا عمه حسين سلطاناً حرّاً من تداخل الاستانة. وكان يرجى منه خير كثير لمصر لكنه بعد سنتين مات وخلفه اخوه فؤاد ونعم الخلف. والمأمول الآن ان تقدم البلاد المادي والأدبي المستفاد من اساتذتها الانكليز يسمح لهم بتركها لمهدة اهلها بطريقة تحفظ الامن للسكان وتقي مصر والترعة من التعدي عليهما، لما لذلك من الاهمية لتجارة الدنيا بأسرها. ولعل المستقبل لا يلبث ان يرينا مصر من الممالك الراقية ومن انصار الشعوب الحرة السامية ان شاء الله.

١٥ مارس سنة ١٩٢٢. صح: — وها هي الآن مملكة دستورية! فقلت لها سيري وارخي زمامه ولا تبعديني من جنائك المعلل

الاسلام

(١) الاسلام ديناً هو دين التوراة والانجيل ، ومذهباً وشريعة هو أحد المذاهب المسيحية الجدلية (التي عرفناها بهذا الكتاب) والشرع الموسوي والعربي ، فلا حجة لنا عليه ولا اعتراض البتة . ولو انحصر الدين بمن خرج منه من الضلّاح والفضلاء لبارى الاسلام أيّ دين كان . انما انتشاره السريع عند الذين قالوا آمناً ولما يدخل الايمان في قلوبهم ، وتقصير الرعاة بانشاء المدارس ، واستبداد اكثرهم وعملهم بأهوائهم الشخصية ، يقرأون الكتاب فلا يتجاوز حناجرهم ، قليلاً ما افاد جمهور المساهمين من أمّهات الكتاب . والنفس أمّارة بالسوء ، فلذلك نراهم أحط درجة من الامم الراقية ، فيسلبون هذا الدين محاسنه كما تمّ ذلك لجهال اليهود والمسيحيين قبلاً وبعداً

(٢) اما الخلافة وعليها سل السيوف فانها بالوضع شوروية ، ومزيتها العدل وكمال التقوى والآداب والاّ فهي سلطنة عسكرية ، وليس لأجلها سيفه من شاء . ولا يصلح الله من أمر قوم حتى يصلحوا ما بأنفسهم . وفي الله الاسلام من استبداد الحكّام المسلمين ، آمين

(٣) ومن أول الزمان وقع في الاسلام التباين بالأراء كما وقع في

النصرانية . بعضه في الاصول وهو موضوع علم الكلام ، وبعضه في الفروع وهو موضوع علم الفقه . فالخلاف في الاصول ينحصر في اربع قواعد ، الاولى الصفات والتوحيد ، الثانية القضاء والقدر ، الثالثة الوعد والوعيد ، والرابعة النبوة والامامة

(٤) وكبار فرق الاصوليين ست ، المعتزلة وضدها الصفاتية ، والقدرية وضدها الجبرية ، والمرجئة وضدها الوعيدية . ويتشعب من هذه اصناف فتصل الى ثلاث وسبعين فرقة . وقد رأينا مثلها بالنصرانية

(٥) فالمعتزلة يعمهم من الاعتقاد نفي الصفات عن ذات الباري تعالى هرباً من أقانيم النصارى ، واتفقوا على ان كلامه تعالى محدث بخلقه في محل وهي المصاحف . وكان منهم احمد بن حنبل زعم ان المسيح تدرع بالجسد الانساني وهو الكلمة القديمة المتجسدة كما يقول النصارى . ومنهم عيسى الملقب بالمزدار بالغ في القول بخلق القرآن وان العرب كانوا قادرين على مثله فصاحة وبلاغة . اما الصفاتية فانهم يثبتون لله صفات ازلية من العلم والقدرة والحياة ، حتى من السمع والبصر والكلام الى حد التجسيم زاعمين بأن لا بد من اجراء حكم الآيات الدالة عليها كالاستواء على العرش وسفر التكوين .

الآن هذا المذهب تقضيه ابو الحسن الاشعري بمنعه التشبيه

(٦) والقدرية ينفون القضاء والقدر فيقولون ان العبد قادر خالق لافعاله ومستحق عليها ثواباً ام عقاباً ، فالله تعالى منزّه عن ان يضاف

اليه شرٌّ وظلم وسموا هذا النمط عدلاً . اما الجبرية فيقولون ان الله تعالى يخلق الفعل والقدرة في الانسان لكنها لا تؤثر بفعله وان أثرت وشطت به فان الله مالك في خلقه يفعل فيهم ما يشاء ، ولا يُسأل عما يفعل وهو في ذلك كله عادل لان العدل على رأيهم هو التصرف بما يملكه المتصرف ، ويوافقون المعتزلة في نفي الرؤية وخلق الكلام (٧) والمرجئة يقولون بارجاء صاحب الكبيرة من المؤمنين الى القيامة ويقولون ايضاً انه لا يضر مع الايمان معصية كما لا ينفع مع الكفر طاعة . أما الوعيدية فيقولون بتكفير صاحب الكبيرة وان كان مؤمناً . فها أننا في كل هذا نرى خيال المسيحيين قبلهم واحسبه قد أخطأ المحجة ولو كنت بي من نقطة الباء خفضة رُفعت الى ما لم تنله بحيلة (٨) أما مذاهب الفرعيين المفسرين للأحكام الشرعية والمسائل الاجتهادية فالمشهور منها اربعة . مذهب أبي حنيفة النعمان بن ثابت ، ومذهب مالك بن انس ، ومذهب محمد بن ادريس الشافعي ، ومذهب احمد بن حنبل . واركان الاجتهاد ايضاً اربعة ، الكتاب والسنة والاجماع والقياس ، وذلك لأنه اذا عرض لهم حادثة شرعية من حلال او حرام ابتدأوا بالكتاب فان وجدوا فيه نصاً عليها قضوا به والا فزعموا الى السنة وهي الحديث الصحيح عن النبي ، فان وجدوا فيها خبراً حكموا بموجبه والا فزعموا الى اجماع الصحابة لانهم راشدون حتى لا يجتمعون على ضلال ، وان لم يروا به مسنداً فزعموا الى القياس

لأن الحوادث غير متناهية والنصوص متناهية. وقد حان الآن التوسع بالقياس كما يقتضيه حال الزمان

(٩) ومن الأئمة داود الاصفهاني نفى القياس أصلاً وأبو حنيفة شديد العناية به وربما يقدم القياس الجلي على احاد الاخبار، ومالك والشافعي وابن حنبل لا يرجعون الى القياس ما وجدوا خبراً أو أمراً، وكل هؤلاء من اهل السنة وقد نقلنا خبر الامام علي عنهم لكنه فاسد عند الشيعة

(١٠) اما الشيعة فهم الذين شايخوا علي بن ابي طالب ابن عم النبي وصهره وقالوا بأن الامامة لا تخرج من اولاده الا بظلم ويجمعهم القول بثبوت عصمة الأئمة وجوباً عن الكبار والصغار وان الامامة ركن من اركان الدين لا يجوز تفويضه الى العامة. ولهم ضد بالخوارج الذين منهم من خطأ علياً فيما تصرف فيه ومنهم من كفره ومنهم من جوز ان لا يكون في العالم امام اصلاً وان كان فيجوز ان يكون عبداً أو حرّاً أو نبطياً اي اسوداً، اذا كان عادلاً وان عدل عن الحق وجب عزله وقتله وكيف كان الامر فان قتل الحسين حفيد النبي لا يُعذر

(١١) فعلى هذا البناء صار الاسلام احد اركان العالم الدينية الموقرة، لكن انتشاره السريع وظروف الزمان التي شاع فيها لم تسمح بهذيب جمهوره الهمجي بعد هدمه اركان التمدن القديم ولم يتهذب بعدئذ حتى خرج الحكم من يد العرب فتوقف بينهم الاجتهاد وصدت

القرائح وأصبح الاسلام مقصراً عن اصل وضعه كما جرى قبلاً بالمذهب
المسيحي وقبله بالموسوي

﴿١٢﴾ والحالة هذه فان النهضة العربية الجديدة لا تقوم الآن ما لم
يكتنفها رجال صادقون يديرون مصالحها بالحكمة والعدالة والاقتصاد
مستنديين على شعب طائع رزين يسهل لهم الاهتمام بترقية الآداب
وطرائق العمران واكتساب ثقة العالم المترعزة من سوء السياسة
السالفة



تم هذا الكتاب بعون الملك الوهاب في سابع عشرة
ليلة خلت من يونيو سنة ١٩٢٠ م
والثلاثين من شهر رمضان سنة ١٣٣٨ هـ

﴿ وتم طبعة في أول شهر مايو سنة ١٩٢٤ م ﴾



فهرست الكتاب

الفصل الاول

صفحة ٥ الى ٣٤

وصية ملك مصر اليوناني والد قلاو فطرا
قلاو فطرا

موت بومبي بالاسكندرية غيلة

وصول قيصر للاسكندرية

احتراق المكتبة

قيصرون بن قيصر من قلاو فطرا

موت قيصر في روما غيلة

مارق انطوني في طرسوس واستقباله فيها قلاو فطرا

عشقه لها

هديته لها مكتبة من برغاموس

انتصار اوقتاويانوس عليه

موت انطوني وقلاو فطرا

شجرة عائلة البطالسة

الفصل الثاني

صفحة ٣٥ الى ٦٧

اوقتوا يانوس الملقب اوجسطوس ، اي الجليل المعظم
 مصر ولاية رومانية
 هيرود المسمى ايضاً هيرود اغريباً الثاني ملك فلسطين
 عظمة تجارة الاسكندرية
 حاكم مصر يغزو العرب بالجزيرة
 روما تدين بدين مصر
 يهود مصر زهاء الف الف
 رهبان اليهود
 اغريباً عائداً من روما يمرّ بالاسكندرية
 فيلو اليهودي الافلاطوني
 اكتشاف طريق الهند بحراً
 تجارة القرطاس
 الكيمياء المصرية
 خمر البلاد والغريب عنه
 فينكس الطائر الخرافي
 ابتداء التبشير بالمسيحية في الاسكندرية
 عصيان اليهود في فلسطين والحرب ضدهم

الفصل الثالث

صفحة ٦٨ الى ٧٨

وسبازيان امبراطور قاهر اليهود
ابولونيوس الكاهن المشعوذ
خراب هيكل اورشليم واذلال اليهود
دوميتيان يدين بدين المصريين ويشيد معابدهم في روما
الشاعر الروماني يوينال يسخر من عبادة المصريين للبهائم
حقيقة اعتقاد كهنة مصر

الفصل الرابع

صفحة ٧٩ الى ٩٩

اعتبار اطباء مصر عند الرومان
تخزين خراج مصر في روما بأمر تراجان
تجارة الاسكندرية
تنصر كثيرين من اليهود
صنم ثيبه النغمي
كتاب هدریان عن أخلاق المصريين
المسيحية المصرية
شيوخ التنجيم في مصر
الاسكندرية ما برحت قطباً لعالم الدنيا وتجارها رأى
دلائل انتشار المسيحية -

الفصل الخامس

صفحة ١٠٠ الى ١١٣

ظهور ضعف يقيين جمهور المصريين ،
ابتداء الانقسام بين المسيحيين القبط والاغريق ،
اضطهاد المسيحيين
فقر مصر

انتقام قراقلاً من اغريق الاسكندرية
الافلاطونية الجديدة

اوريجين المسيحي
تسطي الفرس على املاك الرومان الشرقية

الفصل السادس

صفحة ١١٤ الى ١٢٢

اوديناطوس ملك تدمر شريكاً لغيليانوس
تحسين حالة المسيحيين

كتاب الوحي

رينويا ملكة تدمر
فرموس من سلفكيه ملكاً في مصر

استقلال السودان
اضطهاد المسيحيين الشنيع

اريوس
شيوع عبادة مترا والمناوية

الفصل السابع

صفحة ١٣٣ الى ١٥٨

قسطنطين واعتناقه الدين المسيحي

الاتقسامات الكنائسية

مجمع نيقيا

اسم النصراني

بناء القسطنطينية وانتقال كرسي الملك اليها

خمول روما

خمول الاسكندرية

نزاع كنائسي

الاتقلاب السياسي الناتج من انتشار المسيحية

امتداد الرهبنة

عجائب النساء >

٢٤ روما تابعة مصر بالاراء الدينية

الاحتفال بالقرن الحادي عشر من بناء روما

تأثير أبراج الفلك بأمزجة الخلق

هيجان الوثنيين ضد المسيحيين

موت البطرك اثناسيوس مؤسس السلطة الكنائسية

رهبان مصر

سباق الخيل في غزة

خروج حَجَر من يد الرومان

الفصل الثامن صفحة ١٥٩ الى ١٧٨

١ الضربة القاضية على الوثنية

٢-٣ خراب معابدها

٤ انتهاب المكتبة

٧ تقاليد وثنية عند المسيحيين

نزاع ديني مسيحي

٢١ سوء حالة مصر الاقتصادية

٢٥ هبائيا العامة الوثنية وموتها الشنيع على يد المسيحيين

٢٦ غريغوريوس الأول بابا روما مبشر الانكليز بالمسيحية

٢٩ نستوريوس

٣٦ رهبان الافرنج في مصر

٣٤ تقدم صناعة عمل الورق

٣٩ تبيان الارمن في مدارس الاسكندرية

٤٥ أوروبا تهول الى الخراب

الفصل التاسع صفحة ١٧٩ الى ١٨٧

٢٢٠ نزاع ديني بين المسيحيين

١ مجمع خلقيدونيا

النوب

- ٨ نزاع ديني مسيحي
 ٤ تواتر النزاع
 } ٢ الفرس تحت أسوار الاسكندرية
 مجاعة ووباء فيها
 } إحسانات اليهودي المنتصر أريب
 الفصل العاشر صفحة ١٨٨ الى آخر الكتاب

- ٤ . نزاع ديني مسيحي
 ٥ - الروم الملكيين
 ١٠ الحبشة
 ١٧ جزائر بريطانيا وتجارة مراكب المصريين معها
 ٤٦ موريقي وكسرى
 } ٣٠ أغوستين الراهب المبعوث من البابا غريغوريوس لبريطانيا
 ظهور الهلال المحمدي بمكة
 ١٥ ١٣ كسرى ينتقم من قاتلي موريقي
 ٢٢ - احتلال مصر من الفرس
 ٢٢ - قطع خراج مصر عن القسطنطينية
 ٢٦ - اجلاء الفرس عن مصر

- الهجرة النبوية

الخلافة

احتلال مصر من العرب

أمير المؤمنين يهر يأمر باحراق كتب مكتبة الاسكندرية
وسكان مصر حينئذ

مصر ولاية عثمانية

مصر حكومة خديوية

حفر ترعة السويس

احتلال مصر من الانكليز

الحرب العظمى

استقاط الخديوي عباس

تحرير مصر من سيطرة الاستانة

حسين سلطان مصر

فؤاد ملك مصر

مصر تملكة دستورية

الاسلام والتهذيب العربي

اصلاح خطأ

صفحة	بند	سطر	خطأ	صواب
٥		حاشية	العيالات	العائلات
٢٣	٣٧	٩	مجرهرة	مجرهرة
٣٠	٥٣	١	اقتصاد	اقتصاداً
٣٢	٥٩	٢	كتابتهم	كتابتها
٣٦		٢	لولاية	ولاية
٤٠		حاشية	خمس عشرة	خمس عشرة
٤٤	١٩	١	يتحرش	يتعرض
٤٩		٤	يصلون	يصلون
٥١	٣٣	١	تحرش	تعرض
٦٨	١	٤	اكتساب به	اكتسابه
»	٢	٩	سنين	السنين
٦٩		١	أي	أي
١٠٣	١٠	٢	فصارت من	فصارت تكتب من
١٣٨	١٢	٤	مسجد	معبد
١٤١	١٩	٣	للار يوسيين	بالار يوسيين

صفحة	بند	سطر	خطأ	صواب
١٤٧	١٩	٣	يتحرش	يتعرض
١٤٩	٤٢	١	يتحرش	يتعرض
»	٤٣	٢	لغن	لغن
١٦٥		٢	يجترء	يجتريء
»	١٦	٣	يستشفون	يستشفوا
١٦٩	٢٥	١٠	٥١٤	٤١٥
»	٢٦	٢	فيها	فيه
١٧١	٢٩	٦	الى الصحرا	بالصحرا
١٨١		٢	بأنهم لا	بالأ
١٨٦	٢٠	٥	عن	من
١٩٥	١٦	٣	باحتمكار	حيفاستوس
»	»	٤	حيفاستوس	باحتمكار
١٩٦	١٩	٦	لهم	بهم
٢٠١	٣٢	٦	بالمسيح	بالمسيح
٢٠٤	٤٠	٤٠	بأمره	يأمره
٢٠٥	٤٢	٣٠	مرسح	مرسحا
٢٠٦	٤٦	٣	فار	فاروس

المطبعة العصرية
لنشر المطبوعات الحديثة
الطبعة ٥٦-٣٠